مكتبة البنين
قسم الدوريات

غير مصرح بإعارته من المكتبة

جامعة قطر

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد الخامس

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

من التراث الإسلامي

كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار

لابن العماد

للأستاذ الدكتور

محمد كمال جعفر

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والأديان

يضم التراث الإسلامى أعلاما ثلاثة على الأقل يحملون هذه الكنية « ابن العماد »[1] ، ولذا يجب من البدء تعيين الشخص الذى نقصده في هذا المقال ، منعا لوقوع اللبس وتحريرا لهذه المرحلة الثقافية من تاريخنا الإسلامي المجيد . إن العَلَم الذي نخصه بهذا البحث العاجل هو « أحمد بن عماد بن يوسف الاقفهسى ، شهاب الدين المصرى الشافعى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ثمان وثمانمائة من الهجرة النبوية الشريفة . وفي هذا القرن وما سبقه بقليل خف علماؤنا إلى جمع الشتيت من التراث في صيغ وأساليب عدة كالنظم والتلخيص ثم الشرح والتعليق ، أو وضع كتب على هيئة الحوار والمناظرة أو السؤال والجواب في صورة مستوعبة

(١) ومنهم ابن العماد محمد بن عبد الرحمن بن الخضر بن محمد ، ويقال له ابن يرطع - المصرى الصالحى الحنفى حسام وهو قاض وأديب توفى عام ٨٧٤ هـ . [الأعلام/٧/٦٧] .
ومنهم محمد بن محمد بن على البلبيسى ثم القاهري ، شرف الدين المعروف بابن العماد الحنبلى وتوفى عام ٨٨٧ ، وبذلك يبدو هؤلاء الثلاثة مصريين متعاصرين [الأعلام/٧/٢٧٩] .

شاملة يحس معها المرء وكأن المؤلف يتوجس خيفة من كارثة تحل قريبا من داره ، أو جائحة تكتسح ما لديه من كنوز .

والواقع أن أهل هذه العصور لديهم كل مبررات مثل هذا الشعور ، بعد الطامة التي منى بها العالم الإسلامى في عاصفة التتار ثم الصليبيين ، وهم قد ألهموا حقا فى اصطناع الأساليب والوسائل المتنوعة التى تكفل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من عيون التراث . صحيح أن البلوى كانت أكبر من كل جهد ، والكارثة أفدح وأقوى من كل مقاومة ، ولكن الصحيح كذلك أن مثل هذه الجهود ـ على تواضعها ـ قد استطاعت أن تستنقذ ما لا بأس به من شذرات هذا التراث ، ولولاها لبادت هذه الشذرات فيما باد من ثمينه .

وباستعراض مؤلفات هذا العالم الجليل يدرك المرء على الفور مقدار العبء والمسئولية والأمانة التى حُمِّلها أمثال هؤلاء الأفاضل فيما يتعلق بتثقيف المسلم ، ومدّه تباعا بالفتاوى والمعلومات الضرورية في مثل هذه الأوقات المضطربة ، وتلك ـ لعمرى ـ مسئولية صعبة من حيث جمع الشتيت أولا ، ومن حيث اعمال العقل في المنقول والمعقول من الأدلة الفقهية والأصولية ومصادرها من الكتاب والسنة ، وما يكتنفها من الشروح والتعليقات والتحريرات المتنوعة بتنوع المدارس الفقهية في طول العالم الإسلامى وعرضه .

ولعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شرع هذه الفريضة المقدسة ، فريضة الحج على هذه الأمة ليكون من خيراتها وبركاتها وثمارها هذه اللقاءات الرائعة بين علماء المسلمين في كافة التخصصات ، هذه اللقاءات التى آتت أكلها كل حين بإذن ربها فيما أذاعته من علم ومعرفة وثقافة وفهم للدين وأسرار تشريعاته الحكيمة ، إلى جانب توسيع آفاق المعرفة الإسلامية في شتى العلوم والمعارف الدينية والدنيوية على السواء(٢).

---

(٢) توجد أسر كاملة من العلماء تولت في مواسم الحج بمكة رواية أمهات الكتب الاسلامية وبخاصة الحديث النبوي والتفسير والمغازى والسير،وكان من هذه الأسر أسرة أبي بكر محمد البلدى المحدث المشهور بالنسف ، فقد كان هو وولده وحفيده قنوات خيرة عبرت خلالها كثرة من الكتب ومنها الجامع الصحيح للإمام البخارى المتوفى ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ م . ومن هؤلاء أسرة الصقلى عبد الرحمن بن محمد ، ويرد اسمه في هذا المخطوط ، ونحن على سابقة علم ، فيما روى من تفاسير وأقوال لعلماء أفاضل توفى ٤٢٣ هـ انظر السمعاني / الأنساب ـ/ ٩٠ وقارن معجم البلدان/٨/٢٨٦ .

وعالمنا - ابن العماد المصرى الشافعى - قد أثرى المكتبة الإسلامية بالمؤلفات التى شملت الآداب العامة ، والأحكام الفقهية المنتقاة ، والمعرفة بجوانب الطبيعة الكونية والحيوانية ، والأفكار المدعومة في الاعتقاد ، والفتاوى المركزة الواضحة فيما جدَّ على العالم الإسلامى من مستحدثات ، أو طرأ عليه من أدواء وعادات ، إلى جانب التأملات الدقيقة في أسرار العبادات وأمور الآخرة ، والتحليلات الرائعة لكثير مما شاع من أمراض نفسية كالوسوسة والقلق .

ولم تُغفل مؤلفاته عرض الآراء التاريخية والسياسية فى أهم أحداث الدعوة الإسلامية كالهجرة النبوية ، كما لم تغفل معالجة مكانة المرأة في المجتمع وما يباح لها وما يحظر عليها .

ولعلَّ من أطرف ما خلف هذا العالم هو ما كتبه عن عالم الحيوان ، إذ هو بعد أن يتناول أجزاء وأعضاء الجسم الحيوانى - ومنه الإنسان - من الوجهة التشريحية ، ومن زاوية الوظائف العملية التي تؤديها هذه الأعضاء ، - بعد أن يفعل ذلك - يورد حكما دقيقة وتعليلات رقيقة وراء هذه الوظائف وأوجه نشاطها المختلفة . وتبلغ معرفته بعالم الحيوان حدًّا يمكنه من تعقّب الدميري في كتابه عن الحيوان ، ويخص ذلك بمؤلفين مستقلين : أحدهما يحمل هذا العنوان « البيان التقريري في تخطئة الكمال الدميري » ، أما الآخر فعنوانه : « السر المستبان فيما أودعه الله من الخواص في أجزاء الحيوان » .

وإنى لأدعو القارىء الكريم إلى تأمل عناوين هذه المؤلفات التالية ليدرك بنفسه مدى اتساع الاهتمامات التى توجه إليها فكر هذا العالم الجليل : فمن هذ المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر :

١ - الإبريز فيما يقدم على مؤنة التجهيز .
٢ - أحكام الأوانى والظروف وما فيها من المظروف .
٣ - أحكام الحيوان .
٤ - آداب الطعام .
٥ - الاقتصاد في كفاية الاعتقاد .

٦ ـ البحر الأجاج في شروح المنهاج للنووى .

٧ ـ تحفة الإخوان في نظم التبيان فى آداب جملة القرآن (للنووى) .

٨ ـ تنوير الدياجير بمعرفة أحكام المحاجير .

٩ ـ توقيف الحكام على غوامض الأحكام .

١٠ ـ الدرة الضوئية في الهجرة النبوية .

١١ ـ الدرة الفاخرة فيما يتعلق بالعبادات والآخرة .

١٢ ـ رفع الجناح عما هو من المرأة مباح .

١٣ ـ السر المستبان مما أودعه الله من الخواص في أجزاء الحيوان .

١٤ ـ إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش .

١٥ ـ ألفاظ القطرات في شرح جامع المختصرات في الفروع .

١٦ ـ القول التام فى أحكام المأموم والإمام .

١٧ ـ كشف الأسرار عما خفى عن فهم الأفكار .

وغير ذلك من الرسائل والمنظومات والأراجيز والشروح[٣] .

ومقالنا الحالى يعنى بصفة خاصة بهذا الكتاب الأخير « كشف الأسرار . . » ويحاول أن يعرض وصفا وتحليلا نقديا لمحتوياته ـ وما أذخرها باللطائف والدقائق الفكرية التي تسهم ـ بلا شك ـ في إثراء معرفة المسلم وثقافته ، وتشحذ قريحته وتستحث طموحه إلى المزيد من العلم والمعرفة . ولا يعنى ذلك بالضرورة أن جميع القضايا والمسائل وما انتهى إليه المؤلف فيها من آراء تحظى بالتأييد الكامل دون تحفظ ، وإنما يمكن القول بأن معظم ما قدمه المؤلف لم يخل من استدلال نقلى مُوَثَّق ، أو عقلى مقبول . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن هناك آراء وأفكارا

(٣) انظر حاجى خليفة/ كشف الظنون/ ٣ ، ٦٣ ، ١٣٥ ، ٢٦٢ ، ٤٠٧ وغير ذلك من الصفحات انظر أيضا البغدادى/ إيضاح المكنون/١ ص ٣ ، ٣٥ وما بعدها حـ ٢/١١/٤٦ وما بعدها وانظرهدية العارفين/١ ص ١١٨ ، ١١٩ .

وقارن / الأعلام/١/١٧٨ ، معجم المؤلفين/٢/٢٦ وانظر : *Blockelmann, G II : 93,44,S. II 110, 111*

قد لا يجد المرء سبيلا إلى رفضها أو تأييدها بصورة قاطعة ، وهى تلك الآراء والأفكار التي كانت ثمرة التأمل الخالص ، وإن أحيل التأمل فيها إلى أعلام لهم وزنهم ومكانتهم في العلوم الإسلامية .

منهج الكتاب وأسلوبه :

لقد بدأ الكتاب بمقدمة موجزة مركزة ، حليت من البديع وحسن البيان ما يشهد بسلامة الذوق مع جودة الصنعة ، وهى كعهدنا بالمقدمات في هذا العصر تتضمن الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وبإيراد الحمد تتوالى الصفات والأسماء الإلهية ، وتحتل الوحدانية بحقيقة مفهومها ودلالتها اهتماما خاصا من المؤلف الذى يورد قصة الشعبى ودخوله على الحجاج ممتحنا،وطالبا للتمييز بين المعانى التي تفهم من الوحدانية ليثبت في النهاية الأحدية الالهية التي لا تتصل بالعدد ولا بالجسد ولا بالوالد والولد ، بل تتصل بمن « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . كما يرد في المقدمة بعض الروايات الخاصة بالاستفهام عن كيفية معرفة الرب ومنها هذه المقولة التي يحكيها المؤلف ، فقد قيل لبعضهم كيف عرفت ربك ؟ فقال : بخارج الجنين مصورا على صورة غير مرادة لأبويه ، فعلمته أنه ليس من طبع ولا نجم[٤].

وقد بين المؤلف في هذه المقدمة منهجه وغايته من تأليف الكتاب : أما المنهج فهو يقوم على طريقة السؤال والجواب عما يتعلق بقضايا الألوهية والكون والإنسان وأسرار العبادات وبعض العادات ، على أن تكون هذه القضايا والمسائل من المشكلات الخفية التي تحتار أمامها العقول وتتردد إزاءها الأفكار فهو يقول : « فهذا الكتاب أذكر فيه أجوبة عن مسائل مشكلة ، وخفيات عن إدراك القلوب مقفلة ، يتحير فيها أفكار العلماء ، ويقف عندها عقول الحكماء ، وسميته كتاب كشف الأسرار عما خفا عن الأفكار ، والله المستعان وعليه التكلان ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم[٥].

---

(٤) ص ٥ من المخطوط .

(٥) ص ٦ من المخطوط .

ثم يشرع المؤلف في عرض الأسئلة سؤالا سؤالا ، ويتبع كل سؤال بجوابه المناسب ، وأحيانا يظفر السؤال الواحد بأجوبة كثيرة مأثورة ومنسوبة إلى العلماء ، ولا يقف المؤلف إزاءها محايدا أو مجرد ناقل ، وإنما يرجح ما يراه في نظره مناسبا ، إما استنادا إلى أدلة جديدة يوردها ، أو اعتمادا على تأملات واستنباطات لا تخلو من طرافة وجدة . وهو فيما يذكر من أجوبة أمين دقيق في نقله ، لا يبدو أنه يدعى لنفسه ما ليس له ، ويظهر أنه في المواضع التي يذكر فيها النسبة بصيغة المجهول لا يريد أن يتورط في نسبة قول أو جواب إلى مصدر قد تكون النسبة إليه غير موثقة . فإذا تأكد من النسبة ، وجدناه يذكرها صراحة ، وينص على اسم المصدر وربما أضاف إلى ذلك المرجع أو المؤلف الذي اعتمد عليه(٦) .

ولا جدال في أن المصادر التي اعتمد عليها ابن العماد كثيرة ، والأعلام الذين أورد أسماءهم في كتابه عديدون متباعدون زمانا ومكانا ويغطون حقيقة فترة زمنية ممتدة من بدء نشأة الفكر الإسلامى إلى عصر المؤلف ، أى إلى أواخر القرن الثامن الهجري .

ومن هؤلاء الأعلام ابراهيم النخعى ، والحسن البصرى ١١٠ هـ ت وأبو محمد المروزى وأبو بكر الشبلى وأبو سعيد الخزاز والكرابيسي والبيهقى بخاصة في كتابه البعث والنشور ، وإمام الحرمين الجويني والإمام الغزالى ٥٠٥ هـ وبخاصة في كتابه الجواهر.ويلاحظ كثرة إيراده واستشهاده بأقوال وآراء النيسابورى وبخاصة في كتابه الحكم واللطائف ، إلى جانب العز بن عبد السلام والشيخ عبد العزيز الدريني وغيرهم من مشاهير الأعلام .

وتبدأ الأسئلة بهذا السؤال المتعلق بعدد كلمات الشهادتين ثم بعدد حروفها ، مع التأمل في البسملة والأذان،وهو يورد في جواب مثل هذه الأسئلة ما ذكره فخر الدين الرازى . ويتبع ذلك بتقسيم الشهادتين قسمين ، ثم يسأل عن عدد كلمات شهادة التوحيد ويورد آراء العلماء في

---

(٦) مثل الغزالى في الجواهر ، والبهيقى في البعث والنشور ، والنيسابورى في الحكم واللطائف . وأحيانا يكتفى بقوله صاحب كتاب كذا دون ذكر اسم الشخص كقوله صاحب كتاب أحكام الكتاب والسنة ، وأنا لم أستطع حتى الآن معرفة من هو صاحب هذا الكتاب .

تحليل شهادة أن لا إله إلا الله، وحكمة تقديم النفى على الاثبات بما لا يخرج عن المأثور في مثل هذا المقام ، ولكنه يزداد تعمقا وتحليلا،وحين يحس أن القارىء بحاجة إلى حجة أو مرجع للاستيثاق يسوق بعض المراجع والأعلام ،ومنها السمرقندي في كتاب الأربعين. فإذا تعددت الأقوال ووردت الأجوبة على سؤال واحد ، رأيناه يحاول أن يعزو كل قول أو جواب إلى صاحبه حتى وإن لم يذكر الكتاب الذي ورد فيه مثل هذا القول أو ذاك الجواب .

وفيما يتعلق بخصائص الرسول ﷺ قد يستأنس بشعر حسان بن ثابت رضى الله عنه ، وهو في الوقت نفسه يستقصى الحديث عن أسماء وصفات وخصائص النبى ﷺ بما لا يخرج كثيرا عن المأثور في كتب السيرة والمغازى ، ويبدو أن حجته في الكثير من الأقوال في هذا المقام هو النيسابورى ـ رحمه الله ـ وهو يورد أسماء النبى ﷺ المتفق عليها إلى جانب أسماء تحتاج إلى تفسير كالضحاك وقثم ؛وقد فسرالضحاك الذى يسيل دماء الأعداء في الحرب أما قُثَم ـ بضم القاف وفتح الثاء ـ فقد فسره بالجامع للخير .

ثم هو يستطرد ليعالج مسائل وقضايا تتعلق بالأذان ، وتعليل كون النبى ﷺ لم يؤذن ، ولا يغفل في السياق أن يذكر طرائف أدبية ولغوية تتعلق بلفظ السراج ودلالته بالنسبة للرسول الكريم كما ذكر القرآن الكريم .

ويستغل ابن العماد المناسبة ليعالج الفرق بين الحبيب والخليل،محللا مفهوم كل من خلال الاستعمال القرآنى للفظى الحب والخلة ، والخليل الذى وصف به إبراهيم عليه السلام وهو في هذا يكشف عن دراية بأصول الاشتقاق اللغوى وكيفية انتقاله إلى الاصطلاح الخاص الذى يحدده السياق والمقام . ولا يعدم ابن العماد أن يجد الشواهد الشعرية المواتية لتشهد بصحة الحكم وتحديد المعنى ، وإن كان يورد أحيانا شواهد شعرية لمعنيين متعارضين أو أكثر ، وتظهر ثقافته الأصولية والمنطقية في دراسته للمعانى المتقاربة والاشتقاقات المتشابهة وكأنه يتابع مدرسة ابن جنى في الخصائص ، متابعته لابن عباس في الاستشهاد الشعرى الصحيح .

قضية الشعر بالنسبة للنبى :

بعد أن يناقش ابن العماد مسألة « المقام المحمود » و « الوسيلة والفضيلة » وحكمة دعائنا

لرسولنا - ﷺ - بذلك ينتقل إلى مسألة الشعر وكيف أنه ﷺ كان لا يقول شعرا ، وهو يرد على من روى للرسول الكريم شعرا ردا حاسما مؤيدا أقواله بما ورد في القرآن الكريم وبما ورد في السيرة عن استشهاده ﷺ أحيانا بالشعر الذى ربما نطقه على غير ميزانه أو رويه ، وهو يذكر في ذلك قصصا كثيرة يعتمد في معظمها على النيسابورى[٧].

ثم في غضون معالجته لخصائص الرسول ﷺ وخصائص أمهات المؤمنين يثير أسئلة تتعلق بالفروق اللغوية الدقيقة بين بعض الألفاظ كالسخى والكريم والبخيل والخسيس واللئيم فيضع تعريفات لا تخلو من طرافة ودقة ، تختتم بتعليله عدم جواز وصف الله سبحانه وتعالى بالسخاء ، مع جواز وصفه بالكرم ، فتقول الله كريم ، ولا تقول الله سخى . ومع أن المعلوم أن أسماء الله سبحانه وصفاته توفيقية بحيث لا يجوز إطلاق اسم أو صفة عليه إلا إذا ورد بها أثر صحيح أو آية بينة - مع ذلك فإن ابن العماد يجهد نفسه في تعليل ذلك من الوجهة اللغوية البحتة .

ومن أمثلة ذلك قوله مثلا في السخى أنه « الذى يجمع ويمنع ويشفع وينفع ، بينما الكريم هو الذي « يجمع ولا يمنع ، ويشفع وينفع » ، ثم يقول : ولهذا لا يقال الله سخى ، ويقال له كريم وهّاب جواد ، لأنه فعل لينفع غيره .

ونلاحظ على هذا التعريف الخاص بالكرم وبأنه الذي لا يمنع مع الجمع، أن تلاؤمه مع الوصف الإلهى غير واضح ، فالله سبحانه يمنح ويمنع قال تعالى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده »[٨] . وظاهر أن ذلك ينطبق على المقياس البشرى بدليل قوله يجمع ، ولكن التعليل ينفع الغير صحيح إلى حد كبير .

---

(٧) ومن ذلك ما روى من أن أبا بكر رضى الله عنه حين سمع الرسول ﷺ يقول وأتيك من لم تزود بالأخبار قال له يا رسول الله ما هكذا يكون الشعر ؛ وإنما هو « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » قد يرى الباحث في مثل ذلك مقالا ؛ إذ ليس معنى أن النبي ﷺ لا يقول الشعر أنه لا يتذوقه وهو العربي الفصيح ؛ وقد روى عنه قوله إن من الشعر لحكمة ؛ فكيف يصدق الإنسان أنه لا يستطيع أن يؤدي البيت صحيحا .

(٨) سورة فاطر / ٢

تصنيف القضايا والمسائل الكبرى التي عالجها المؤلف

بالرغم من كثرة الأسئلة وتفرعها واستقصائها وتغلغلها إلى أعمق أعماق المشكلات العلمية والدينية ، فإنه يمكن تصنيف هذه الأسئلة وأجوبتها المتنوعة تحت جوانب رئيسة عامة تندرج تحتها تعريفات لا يحدها حصر ، ولا يجمعها نظام إلا بكثير من المعاناة والمكابدة .

وتيسيرا للمهمة وتعجيلا للفائدة ، فإننا نرجو أن يكون التصنيف التالى وفيا بعض الوفاء بنقل الصورة الأمينة لمحتويات هذا العمل العلمى المفيد .

إننا نرى من أجل هذا التيسير والتعجيل أن جميع القضايا والمسائل أو معظمها ترجع إلى جوانب أربعة كبيرة ، وهى الجوانب التى حكمت وسيطرت في الواقع على الفكر الإنسانى قبل الإسلام وبعده ، وظلت حقبا طوالا تشكل جوانب الفكر الفلسفى ذاته منذ التاريخ المصرى واليوناني القديم إلى مطلع عصر النهضة الأوربية ، كما أن من هذه الجوانب ما شغل الفكر الديني كذلك قبل الاسلام وبعده ، سواء في ذلك الأديان السماوية أو الأديان الوضعية .

فالجانب الأول : ما يتصل بالألوهية وصفاتها وبخاصة ما يتصل بمبدأ التنزيه القاضى بمخالفته سبحانه لسائر الحوادث ذاتا وصفات وأفعالا ، وقد تكون الأفكار الكبرى الواردة في هذا القسم أفكارا معهودة ، ولكن المؤلف يضيف دقائق ولطائف تُكسِب ما يعرضه جِدّة وطرافة ، وتوحى بحصيلة تأمل متأنٍّ متثبت فيما يلاحظه وما يتأمل فيه . ولا يتسع المقام لاستعراض كل ما أورده المؤلف في هذا الجانب ، ولكن حسبنا أن نورد بعض الأمثلة التي يذكرها ابن العماد في معرض تأكيد مخالفته صفات الله لصفات ما سواه وأفعاله لأفعال الآخرين .

ونحن نلاحظ أنه يتخير الصفات التي قد توهم بحكم اللفظ ، الاشتراك فيحذر من أن يخطر بالبال أى نوع من التشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق . وأوضح صفة يوليها المؤلف كل عناية هى صفة الكلام ـ هذه الصفة الجليلة التى أراد أعداء الإسلام أن يتخذوها

شرارة فتنة ، ومؤرث صراع بين فئات وعلماء المسلمين ، حتى استفحلت المحنة ، واكتوى بنارها أعلام أجلاء ، هم موضع اعتزاز كل مسلم أصيل ، من أمثال الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه . وقد أشبعنا الحديث حول هذه القضية في كثير من مؤلفاتنا[٩] ووجهنا الأنظار إلى العوامل الخفية التي كانت تعمل عملها من وراء الحجب والأستار في القصور والأديرة .

ومؤلفنا يحسم القضية بوضع الفواصل والمميزات بين الكلام الالهى وكلام المخلوق ، ثم يعرج على تكليم الله لموسى عليه السلام وحكمة اختصاصه بهذا الشرف دون سائر الأنبياء على ما تذكر النصوص الصحيحة الموثقة . وتحليلات المؤلف لهذه المسألة والمقارنة بين موقف التكليم الذى خلع شرفه على موسى ، وموقف الرؤية الذي حرمه تدل دلالة قاطعة على سعة أفق المؤلف وتمكنه من الآراء التي اعتمد عليها فيما له مصدر ، أو الآراء التى ابتكرها أو أغفل مصدرها ، وذلك يحتاج إلى فحص وتحقيق دقيق يضيق عنه صدر هذا المقال[١٠].

أما بالنسبة لأفعاله سبحانه ، فيكفى أن نختار فعلين نوه المؤلف بهما ، ونبين يقين المخالفة ووضوحها أمام كل بصر وعقل وبصيرة. الفعل الأول هو البناء ، فالمعهود بالنسبة للمخلوقين أنهم يبنون الأسس والقواعد والعمد والحوائط ثم يقيمون أو يرفعون السقف بعد إقامة هذه الأسس التي يعتمد عليها السقف ، ولا يمكن أن يقوم أو يثبت إلا عليها ، ولكن الله سبحانه يبنى السماء أولا وهى السقف المحفوظ بقدرته لا بالعمد كما قال عز شأنه « والسماء

---

(٩) انظر كتابنا من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله / حـ ١ ص ٣٧٧ وما بعدها . طـ دار المعارف وقارن من فلسفة ابن مسرة / خواص الحروف وحقائقها وأصولها (نشرة المجلس الأعلى للثقافة) وقارن ما يلى : التهانوى / كشاف اصطلاحات . . . / ٢ / ١٢٧١ ، ٧٢ ، ابن تيمية / مجموعة الرسائل والمسائل / ٥ / ص ٨ وما بعدها ، وراجع أيضا مذهب السلف (ملحق بجزء ٢ من مجموعة الرسائل والمسائل طـ ١٣٤٩ هـ القاهرة .

(١٠) الذات والصفات والأفعال والأحكام الألهية موضوع بحث دقيق في تراث التسترى في الكلام /١ وفي المعارضة والرد على أهل الفرق . . والأول نشر مكتبة الشباب بالقاهرة ، والآخر نشر دار الإنسان بالدقى والتحقيق لكاتب هذه السطور .

بنيناها بأيد وإنا لموسعون »[١١] وكما قال « خلق السموات بغير عمد ترونها »[١٢].

ويذكر من الأفعال ما قد يوهم الاشتراك بالاسم كفعل الشراء المذكور في قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »[١٣] وهنا يذكر المؤلف تعليقات ضافية تنم عن فهم دقيق لأسرار النظم القرآنى وفقه عميق للروح الاسلامية الأصيلة ، دون إسراف في الجدل أو التغليب المفضى إلى الخصومة والخلاف ، حتى في إيراده لآراء متعددة يظل المؤلف هادئا مستهديا مطالبا القارىء بالمشاركة في الفهم والتفهم ومحاولة ترجيح أى من هذه الآراء، وصولا إلى اطمئنان القلب وراحة العقل والنفس .

وفي استكمال مبدأ التنزيه الإلهى يقتحم المؤلف دائرة التعليقات المستفيضة على قوله تعالى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »[١٤] ممحصا كل تعليق من الوجهة اللغوية والبلاغية والكلامية والفلسفية العامة ثم ينتهى إلى تأكيد التنزيه الإسلامى ـ لا التنزيه الفلسفى المطلق الذي قد ينتهى إلى التعطيل . وهو هنا ينتفع بتراث كل من الجنيد وسهل التسترى ثم ابن تيمية وابن القيم ، ملاحظا ـ كما لاحظوا ـ عدم اقتصار الآية الكريمة على النفى أو السلب ، وتضمنها للاثبات والإيجاب في قوله ـ عز شأنه ـ وهو السميع البصير . وكأنه يترجم بذلك قول سهل بن عبد الله التسترى في نصيحته لتلاميذه « لا يخرجنكم تنزيه الله إلى التلاشى ، ولا يخرجنكم تشبيهه إلى الجسد ، الله يتجلى كيف يشاء » .

ثم يورد المؤلف حديث « القدم » بفتح القاف الذي يطفىء به الله أو يسكت به جهنم التي دأبت قبل وضعه على قولها « هل من مزيد » وهو لا يناقش ولا يشك في صحة الحديث ، ولكنه يورد أقوالا كثيرة بعضها طريف وغريب للغاية ، ويحتاج إلى التعرف على مصادر هذه الأقوال ، وإن كانت في جملتها معللةً ومبررةً بتفسيرات وتحليلات عقلية ، ومستندة إلى شواهد ونظائر في الاستعمال العربي الذى يحتاج إلى توثيق من مصادره الأدبية واللغوية الأصلية .

---

(١١) الذاريات / ٤٧ . (١٢) لقمان / ١٠ . (١٣) التوبة / ١١١ .
(١٤) الشورى / ١١ .

قضية التوحيد : تعلو صيحة المؤلف في قضية التوحيد بالذات من ناحية توكيده أن التوحيد الإسلامى لا يماثل أنماط التوحيد الأخرى كتوحيد الوجود *Pantheism* أو توحيد المصدر *Monism* أو التوحيد المحايد *Neotral Monism* كما يورد بعض الألغاز بهذا المبدأ والتي أوردها بعضهم على الحجاج حين قال له : واحد من واحد وواحد كواحد ، وواحد في واحد أيُّهم تعبد ؟ فقال : لا أعبد الواحد في واحد من طريق العدد ، ولا الواحد من الواحد كالوالد مع الولد ، بل أعبد الواحد الذي ليس بعدد ولا بجسد ولا بوالد ولا ولد وليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

ويبدو أن المؤلف أراد أن يسمع هؤلاء الذين راحو ضحية التأثر بالفلسفة الهندية في نطاق الهندوكية والبوذية القائلة بالاطلاق العام المفضى إلى وحدة المصدر الوجودى والمنكر للوجود الفردى أو الشخصى . أو المذهب القائل بوحدة الوجود في وجهيه المطلق والمقيد (الالهى والمخلوق) ، وقد ناقشنا مذاهب الوحدة هذه في كثير من مؤلفاتنا[١٥] .

ونكتفى بهذا القدر في ذلك الجانب الأول من الجوانب الأربعة التى أشرنا إليها آنفا ، والتي رأينا اندراج معظم القضايا والمسائل المضمنة في هذا الكتاب تحتها لننقل إلى الجانب الثاني .

الجانب الثانى : أما الجانب الثانى فيعالج في عمومه وخطوطه العامة قضية الخلق وأصوله بصورة كلية ، وتشمل خلق العرش والكواكب والأفلاك،ومنها الشمس والقمر والسماء والأرض وما يتبع ذلك من استعراض خصائص النور والظلمة ومميزات الليل والنهار والمفاضلة بينهما ، والحكمة العامة في تفضيل بعض الأوقات على بعض ، وفي أمثلة هذه المسألة الأخيرة يقتصر المؤلف على الجانب والمصدر الإسلامي،حتى فيما يتصل بتفضيل بعض الأوقات لدى أصحاب الديانات الأخرى وبخاصة أهل الكتاب .

---

(١٥) على سبيل المثال في كتابنا تأملات في الفكر الاسلامي ، والاسلام بين الأديان،وغير ذلك كدراسات فلسفية وأخلاقية (وكلها نشر مكتبة دار العلوم) .

وهو خلال ذلك يعرض ثقافة لغوية ممتازة فيما يتصل بأصل اشتقاق بعض الاصطلاحات كالعيد ورجب وشعبان وعاشوراء وليلة القدر[١٦].

أصول الخلق : مع أن العامل الأساسي في عملية الخلق هو الأمر التكويني الموحد للشيء والمؤذن له بأن يكون ، فإن المؤلف من موقف الملاحظة والتأمل فيما صح من الأثر والنصوص يذكر أن أصول الخلق - بمعنى العنصر أو الخامة التي تشكل منها الخلق الفعلي المنظور والواقعي الملموس - تتمثل في ستة أشياء ، لكل شيء منها مثال واضح منصوب : فالنور للملائكة ، والنار للجن ، والتراب لآدم ، والعظام لحواء ، والماء لكل دابة ، والريح لكائنات غير معروفة ، وقد يظن بعضهم أنه يعنى الدخان إشارة إلى الحالة التي كانت عليها السماء قبل أن يصدر لها الأمر الالهى كما تنص الأية الكريمة « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات ، وأوحى في كل سماء أمرها . . . »[١٧].

ولا شك أن المؤلف يُغْفِل ملاحظة أن العظام التي خلقت منها حواء - كما ورد في بعض الأحاديث النبوية - قد تنتهى في تحليلها إلى التراب وأن الماء الذي خلقت منه كل دابة ، مصداقا لقوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء . . . »[١٨] - هذا الماء بدوره طور آخر من أطوار الخلق[١٩].

---

(١٦) قد يضاف إلى ذلك ما اصطلح عليه كما في القرآن الكريم من « أيام الله » ، وقد أفضنا في الحديث عن هذا المصطلح في عرض نظرة الاسلام إلى التاريخ في كتابنا « الإسلام والأديان / ٣٦٥ » وما بعده وذلك في مواجهة النظرة اليهودية إلى التاريخ . وهذا المصطلح يجري على السنن العربي المعروف « بأيام العرب » على تفصيل تتلمسه في المرجع السابق .

(١٧) سورة فصلت / ١١ .

(١٨) سورة النور / ٤٥ .

(١٩) إن من يظن هنا التأثر بمدرسة العناصر اليونانية يغرق كثيرا في الظن بغير برهان .

من مسائل الخلق : يعالج المؤلف عن طريق السؤال والجواب عديدا من المسائل المتعلقة بالخلق ، ويناقش الآراء مناقشة هادئة موضوعية تسعفه فيها ثقافته الإسلامية الواسعة ، واستحضاره المواتى لنصوص الكتاب والسنة . فمن هذه المسائل : حكمة خلق العرش مع عدم حاجة الله سبحانه إليه ، وهو يورد في هذه الحكمة سبعة أوجه لا تخلو من الطرافة وسعة الأفق ، ثم يتطرق إلى مسألة دقيقة طالما كانت مزلة أقدام كثيرة ، وهى تعليل حجب الخلق عن رؤية الخالق ، وتبدو دقته ووعيه في تأكيد أن الله سبحانه ليس بمحجوب ، لأنه لا يحجبه شيء ، وإنما الحجاب من جهة خلقه رحمة بهم في الدنيا ، والمؤمنون غير محجوبين عنه في الآخرة فضلا منه ونعمة[٢٠].

ثم ينتقل إلى مناقشة قضية خلق الدنيا ، وهل خلقت للمؤمن أو للكافر ، وحكمة مشروعية الكسب فيها ، وقياسها مع الآخرة في تحليل رائع جميل يستغرق أكثر من صحيفتين لينتهى إلى إفهام كل مسلم أن الدنيا تنتظره ليعمرها بالخير والحق والعدل،لكى تعمر آخرته بالنعيم المقيم والكرامة الدائمة . ثم يتطرق إلى التعليق على الحديث النبوى « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فيشرح هذا الحديث شرحا قريبا يقنع الإنسان من أقصر طريق ، وهذا وجه واحد من الروح التي يقدمها ، لكنه أقربها جميعا وأسهلها وأوضحها ، وملخص هذا الشرح ببساطة هو أن الدنيا للكافر إذا قيست بالآخرة كانت الأولى جنة حقيقية ، إذ فيها يمكن أن يتمتع ، فإن لم يتمتع فعلى الأقل ليس فيها العذاب والأهوال التي تنتظره في الآخرة ، أى أن الدنيا بدون عذاب الآخرة تعتبر جنة فعلا بالنسبة للكافر ، أما المؤمن فإن دنياه إذا قيست بما ينتظره في الآخرة من نعيم ورضوان ، كانت سجنا يحول بينه وبين هذا النعيم ، وفي السجن الأدب والانتظام والاستقامة حتى يفرج عن السجين مرضيا عنه إلى ساحة الحرية وباحة الرحمة والمغفرة ثم النعيم المقيم ، وهذا - كما قلنا - وجه واحد من الأوجه التي يقدمها المؤلف في

---

(٢٠) فكرة عدم احتجاب الله بالخلق وإثبات كون الحجاب راجعا إلى طبيعة الخلق ذاتها وأسسها الفلسفية والدينية معالجة في تراث التسترى وابن مرة والغزالى ، كما في المعارضة والرد للأول ، وخواص الحروف للثانى والاحياء في جزءيه الأول والرابع للثالث .

التعليق على هذا الحديث ، وهو يكفى في هذا المقام .

ومن مسائل الخلق أيضا ما يتعلق بالشمس والقمر وخصائصهما الطبيعية التي تعتبر بالمقياس الحديث جديرة بالتحقيق والفحص العلمي التجريبي وبخاصة فيما يتعلق بأشعة الشمس وتأثيرها على الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، ولعل أطرف ما يرد بشأنها ما يذكره ابن العماد من أن الشمس بحرارتها تفعل ما يفعله الطباخ . ولكن من أعلى - على خلاف عادة طباخ المخلوقين الذى لابد أن يكون من أسفل - وقصده بالطبخ هنا إنضاج الزرع وإيناع الثمر واكتماله .

كذلك ما يورده المؤلف بشأن أشعة أو ضوء القمر وأثره على الكائنات وبخاصة في الإنسان الذي ينام منكشفا في ضوئه . ويورد هنا ملاحظات تحتاج إلى الاستيثاق عن طريق التجربة والاختبار،كاصفرار اللون وتثقيل الرأس وتسوس العظام وذوبان ثياب الكتان خاصة في ضوء القمر . كما يتطرق إلى فكرة تعدد المشارق والمغارب من الناحية الفلكية والجغرافية وتساوى الليل والنهار عند خط الاستواء ، ويعرض لبعض الفتاوى الفقهية المتعلقة بصوم وصلاة القوم الذين لا تشرق الشمس لديهم إلا بمقدار ما بين المغرب والعشاء ، إلى غير ذلك من المشكلات التي تعتبر مشكلات حقيقية ، استدعت اجتهاد الفقهاء والعلماء،واستحثت بحوثهم وكفاحهم البحثى الممتاز والممتد إلى شتى الآفاق .

خلق الإنسان ومركزه في الكون : لعل من أهم قضايا ومسائل الخلق التى عرضها المؤلف في هذا الجانب هو ما يتصل بالإنسان سواء كان في جنسه العام أو في أصله الأول آدم عليه السلام[٢١]. وهنا نرى الأسئلة تتوالى لتشمل الخلق البدنى أو الجسدى المادى

---

(٢١) الواقع أن المؤلف يردد أسئلة كثيرة حول تصوير آدم ثم نفخ الروح والمدة التي استغرقها التصوير والحكمة في ذلك . وهو في غضون إجاباته يرفض آراء المنجمين وأرباب الهيئة - الفلك - ويضع النظرة الإسلامية في مواجهة الآراء المضادة في تفصيل دقيق ص ١٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من المخطوط .

والخلق النفسى الروحى ، ثم تتطرق إلى خلق إبليس ومبرراته والمقارنة بين خطيئة آدم وذنب إبليس . ونلاحظ إسهاب المؤلف حقا فى تحليل الخطيئة الآدمية ، ولا نعدم أثناء التحليل اللمسات والدقائق اللطيفة المتعلقة بهذه الخطيئة وبخاصة عندما يعلل إفراد آدم بنسبة العصيان إليه فى قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى »[٢٢] مع أن حواء شاركته وربما سبقته إلى المعصية كما تذكر بعض الروايات ، ويحلل ابن العماد ذلك تحليلا لطيفا حيث يقول : إن ستر الحرمة من الكرم[٢٣]. ويتابع ابن العماد مناقشاته للحكمة من إخراج آدم من الجنة ، وحقيقة الدوافع وراء تساؤل الملائكة عند الإخبار بأن الله سيجعله خليفة بقولهم « أتجعل فيها من يفسد فيها » .

ويشبع المؤلف العقل والقلب بما يورده في كيفية خلق الإنسان في أحسن تقويم ويستعين في تحليلاته الرائعة القيمة بمعرفة تشريحية وعضوية عميقة . فيتحدث عن أجهزة الإنسان وأعضائه وطاقاته وأوجه نشاطه تحدث الخبير الملم بدقة بأخص خصائص وظائف الأعضاء بصورة تزرى بما قدمه أوجيست كونت أو دوركايم وبوانكاريه .

إن المتتبع لتحليلاته وتعليلاته لهذه الخصائص والوظائف يخرج بانطباع الاعجاب والإقرار المذعن بروعة الإبداع الإلهى ، وسامى الحكمة الربانية في هذا الخلق القويم من حيث الجانب البدنى وحده - بله الجانب العقلى والنفسى - فلا يملك إلا أن يقول في تطامن وخشوع « فتبارك الله أحسن الخالقين »[٢٤].

إبليس وحقيقة دوره : لقد كانت قضية إبليس حجر عثرة في طريق الباحثين بعد أن استغلها الملاحدة قبل الإسلام وبعده ، وبعد أن دبجت المقالات المهاجمة لسائر الأديان بعامة وللدين الإسلامى بخاصة ، ولعل أقربها إلى الذهن الآن . . ما كتبه العظم . . ،

---

(٢٢) سورة طه/ ٢١

(٢٣) وينسب هذا الرأى إلى ابن الجوزى ، ويرتبط بذلك مسألة ورق الجنة .

(٢٤) سورة المؤمنون/ ١٤ ولا عجب فيما عرضه ابن العماد من معرفة بهذا الجانب فقد خصه بمؤلفين كاملين استدرك في أحدهما على الدميرى بعض الآراء والأحكام .

وما رُدّ به عليه من كتّابنا المسلمين الفضلاء .

والمؤلف لا يتردد في تعليل خلق إبليس ، كما لا يتردد في تعليل عدم قبول عذره في العصيان ، وهو يظهر براعته الأصولية في مناقشة ما تعلل به في عصيان الأمر بالسجود ، ويؤكد خطأه المتعمد والمصر عليه في ثلاثة مواضع يسهب المؤلف في تحليلها ويناقش فكرة المفاضلة بين الطين والنار،وكيف يقع المرء في الخطر والخطأ والنقمة عندما يقيس في موضع النص ، ويكون القياس مع ذلك قياسا باطلا،مما يضيف إلى فداحة الخطأ وشناعة العصيان . ولعلّ أطرف ما ينتهى إليه المؤلف في تعليل وجود إبليس وجنوده ممن يمثلون نوازع الشر والفساد هى قوله : لو لم يكن إبليس وذريته لما هاج في قلب المؤمن ريح المودة وقوة العزيمة وبخار الطاعة أو نور المعرفة ، فمثله كما يقول أبو تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عرفِ العود

أو قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

فليكن إبليس من يكون إغواء وإغراء ، فإن المؤمن يعوذ منه في كنف قوى متين ، يغلب حبه وطاعته كل إغواء وإغراء ، وليكن على العكس مما أراد هو من إضلال البشر وإردائهم ، ليكن شاحذا لهممهم مثيرا لنخوتهم ومقاومتهم ، فقد فتح الله لهم أبواب رحمته قبل الذنب وبعده ، فإذا استعاذوا بالله عند النزغ أعاذهم ووقاهم ، وإذا زلت القدم فقد شرع باب الندم ، وفتح باب التوبة . وهنا نجد المؤلف يستعين بالأمثلة الموحية ليشرح وجهة نظره في جمال وروعة ، فهو مثلا يصوّر المذنبين وكأنهم صيد وقع في شباك إبليس ، وقد فرح إبليس بامتلاء شبكته ، ونجاح صيده ، وفعالية خطته ، واطمأن إلى أنه قد استحوذ على هذه الضحايا التى لا فكاك لها في نظره . وبينما هو في غمرة فرحه وطيشه ، يتجه هؤلاء المذنبون فجأة إلى ربهم فيتوب عليهم ليتوبوا ، ويصبح إبليس ليجد شبكته خالية ، فيشتد حزنه ، ويتضاعف غمه ، لأن ذهاب الصيد بعد اصطياده ، أشد إدخالا للغم والحسرة على النفس من عدم الصيد أصلا .

ولا يترك المؤلف القارىء حتى يعرض عليه أوجه الرحمات والألطاف الإلهية التي تدل عليها الآيات القرآنية المحكمة التي لا تدع مجالا للشك في أن الإسلام هو دين الأمل ، ودين الفأل ، ودين القوة ودين المصير الواثق الواعد . وهنا لا يغفل المؤلف عن تنبيه قارئه إلى حقيقة هامة ، طالما أخطأتها الأفهام والعقول ، وأساءت استغلالها بعض المذاهب الواهية . وهذه الحقيقة تتعلق بتوسط المسلم بين الرجاء والخوف وعدم الإسراف في أيٍّ منهما ، وذلك لأن الإسراف في الرجاء قد يفضى إلى الاغترار والكسل والعجز والتواكل والادعاء الكاذب ، وقد سقط في هذه الوهدة خلق كثيرون ممن كانوا قبلنا ، فظنوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ، وزُيِّن لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة مع قبحها . وفي المقابل فإن الإسراف في الخوف قد يورث القنوط واليأس والقتامة والتبلد ثم الخمود والانهيار ، وقد بين القرآن الكريم أنه « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »[٢٥].

ثم يناقش المؤلف ما ورد من خلاف حول عبادة الله بالخوف أو بالرجاء ، ويورد ما قيل في المفاضلة بينهما ، مع الدعم بالأدلة النقلية عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، ويناقش ما أثر عن بعضهم من قول وصف بأنه قول حكيم وهو : مَنْ عبَدَ الله بالخوف فهو مُرتجىَ ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف والرجاء والحب ـ أى الطاعة المطلقة « فهو مستقيم »[٢٦] ويعقب على ذلك بنظرة ثاقبة تقتضى أن ينظر فيها إلى حال الفرد والظرف الذي يعيش فيه فهو يرى مثلا أن الخوف قبل الذنب أولى بالإنسان ، لأن مثل هذا الخوف يقيه ويجنبه الزلل ، على حين أن الرجاء بعد الذنب أفضل ، لأن ظن الإنسان بأن ذنبه أكبر من أن تناله رحمة الله ومغفرته بعد قوله تعالى « إن الله يغفر الذنوب جميعا » ـ هذا الظن في حد ذاته أكبر الذنوب وأعتاها وأدخلها في باب اليأس والقنوط .

---

(٢٥) سورة يوسف / ٨٧ .

(٢٦) ويبدو أنه هنا يقتبس من الغزالى في الاحياء ومن ابن القيم في كتابه مدارج السالكين / جـ ١ .

وهو ينتهى بعد مناقشات وتحليلات مطولة إلى تقسيم الخلق بالنسبة للرحمة الإلهية والمغفرة الربانية سبعة أقسام . ثلاثة منها لا نصيب لهم فيها ، وهم الكفار والمنافقون وأهل البدع . وثلاثة غير محتاجين إليها ، وهم الملائكة والأنبياء والطائعون التائبون الحامدون ـ إلى آخر الصفات التى عددتها الآية القرآنية الكريمة . ويبقى القسم السابع وهم العصاة الذين يناديهم الله سبحانه بقوله « . . . يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »(٢٧).

كثرة الكفار وقلة المؤمنين : قرر المؤلف ضمن المسائل المطروحة كثرة الكفار عددا بل ومددا أحيانا ، وقلة المؤمنين ، وهو يتأمل هذه الظاهرة تأمل المؤمن المعتز بالله وبإيمانه ، وبالنظرة الدينية الالهية والقياس الربانى الذي يزن الفرد الواحد المؤمن بعدد كبير من الكفار ، وربما فاقهم ، ولعل في ذاكرته مسألة تقدير المؤمن بعشرة من الكفار ، لكنه مع ذلك يستنبط من هذه الملاحظة في قلة المؤمنين وكثرة الكفار تبريرات تدل على الفطنة وجودة الفهم؛فهو يرى مثلا أن قلة المؤمنين فيه إشعار باستغناء الله عن الطاعة ، لشمول رزقه ورعايته للخلق مؤمنهم وكافرهم في الدنيا ، وفيه كذلك إثبات لعزة الله وقدرته وعظيم سلطانه في حفظ القلة في وسط الكثرة ، كما حفظ كتابه الكريم أمام أضخم القوى وأطغاها عبر العصور والأزمان ، ويرى كذلك أن القلة داعية إلى النفاسة والعزة ، وفيها تأكيد أن النصر إنما هو من عنده سبحانه ، فقد أصاب المسلمين ماكرهوه من فشل في مبدأ غزوة حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

ولا يترك المؤلف القارىء حتى يكون قد امتلأ ثقة واعتزازا بربه وبدينه وبنبيه ﷺ ، لما يضفى على حديثه من نبض وحرارة سرعان ما ينتقل أثرهما إليه .

(٢٧) الزمر / ٥٣ . وقد يكون عدم حاجة الملائكة والأنبياء والطائعين إلى الرحمة موضع نظر ، لأن أي كائن مهما علا قدره محتاج إلى رحمة الله وفضله وخاتم الأنبياء ﷺ قال له ربه « ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ويظهر أن المؤلف قصد الرحمة الخاصة بجانب المغفرة فقط .

الشقاوة والسعادة : من المسائل الفرعية التي تعرض لها المؤلف مسألة السعادة والشقاوة وأماراتها(٢٨) أو علاماتها. وهو يمزج بين الدليل العقلى التأملى والدليل النصى النقلى ، تدعمها الملاحظة والخبرة بصنوف الناس وطرائق معايشهم وعاداتهم . لكنه ينتهى في هذه المسألة إلى ربط السعادة بمفهومها الدائم الخالد ، وليس بالمفهوم القاص الذي نحا إليه بعض الفلاسفة الذين ربطوه باللذة أو المتعة(٢٩) أو قيدوه بهذه الحياة الدنيا .وهو يصرح أن المنظار الذي ينظر به إلى السعادة والشقاء هو المنظار الذي يتسع مداه اتساع موجده ، وهو المنظار الديني « والله واسع عليم » ، وفي ضوء هذا المنظار يلاحظ أن الخلق يبدون بالنسبة لهذا المنظار إما سعداء في النفس وفي لباس السعادة - أى أن سعادتهم ظاهرة وباطنة ، وهم الأنبياء وأهل الطاعة والصلاح ؛ وإما أشقياء بالنفس وفي لباس الشقاوة - أي أن شقاءهم ظاهر وباطن وهم الكفار . وقد يكونون أشقياء في النفس في لباس السعادة أى أن شقاءهم نفسى باطني ، وسعادتهم سطحية ظاهرية ، وهؤلاء أفراد قليلون منهم إبليس ، وما يذكره المؤلف باسم بلعام بن باعورا . أما الصنف الرابع الذي يذكره المؤلف فهم هؤلاء السعداء بالنفس ولكن في لباس الشقاء - أى أن سعادتهم باطنة حقيقية ، وإن بدوا ظاهريا في زى الشقاء ، وهم هؤلاء المؤمنون الذين وضعوا في موضع المحن والبلاء ، وبخاصة في مطلع حياتهم كبلال وصهيب وسليمان ، وعمار بن ياسر رضى الله عنهم أجمعين .

إبليس ومصدر الشقاء : وإذا كان الشقاء الحقيقى يمتد بسبب ظاهر أو خفى إلى إبليس ، فإن المؤلف يُهوِّن على المسلم أمره،ويقدم له طرق العلاج وسبل المقاومة الإيمانية

---

(٢٨) من أمارات السعادة : حبّ الصالحين والدنو منهم ، وتلاوة القرآن ، ورقة القلب ، ومجالسة العلماء ، ومن أمارات الشقاوة : جحود العين ، وقساوة القلب ، وحب الدنيا ، وطول الأمل .

(٢٩) انظر تفصيل ذلك في كتابنا في الفلسفة والاخلاق /٧٦ وما بعدها وقارن المقال القيم الذي كتبه الدكتور زكريا ابراهيم بالانجليزية بعنوان *The Philosophy of joy* بمجلة *The Review of Religion N°. 26 (1958)*

التي يستمدها من الكتاب والسنة ، ومن أقوال الأئمة ثم من أحوال الناس وظروف تقلبهم في الحياة ، ولعل أوضح مثال لذلك ما يقدمه من علاج للوسوسة الشيطانية ، ولا يترك ظاهرة الوسوسة بصفة عامة دون إثارة الأسئلة ومنح الأجوبة عليها إزاء هذه الظاهرة الخطيرة التي قد تخل بحياة الإنسان،وتؤدى إلى إضطرابه وانقلاب معاييره وموازينه ، وتوجد في هذا الجانب الثاني الذى أفضنا بعض الشيء فى أهم مسائله قضايا فرعية أخرى يضيق عنها المقام ، وسنعالجها في مقام آخر لما لها من أهمية في الدراسات المقارنة(٣٠).

الجانب الثالث : أما الجانب الثالث الذي تندرج تحته قضايا ومسائل في غاية الأهمية فهو الجانب الذى يمكن أن نطلق عليه جانب النبوة والأنبياء ، بما يتضمنه من مسائل وحقائق ومشكلات فرعية لا تقل أهمية وخطورة . وسنكتفى في إيراد قضايا هذا الباب ببعض هذه القضايا والمسائل التي تكشف عن مدى ثقافة المؤلف واستيعابه وحسن انتقائه وسلامة نقده وتعليقه على ما يورد من آراء وأقوال :

١ - **المهمة الأساسية للنبوة وما يتبعها من مهام** : مع أن النبوة في حد ذاتها ذات غاية ومهمة محددة ، تتبعها وسائل وأساليب وممارسات متنوعة - وهنا تلتقى النبوة مع الرسالة - على أساس أن كل رسول نبى - ومع أن النبوة قد بدأت بآدم عليه السلام ، فإن المؤلف يبدأ أولا بالحديث عن نبوة رسولنا ﷺ موضحا مكانته وبعض خصائصه وخصائص زوجاته ، ثم عرض أسمائه وصفاته معتمدا في ذلك على أوثق المصادر من كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، وأقوال الأعلام المعتد بهم في الثقافة الإسلامية الأصيلة ، ثم ينتهى إلى تعليل ختم النبوة به صلوات الله وسلامه عليه ، وتعليل كون أمته آخر الأمم ، لتبرير إمكان شهادتها على الناس . ثم يستعرض ما قيل من بعض الحالات التى نسب فيها إلى

(٣٠) ومن لطيف ما يثيره المؤلف حول السبب الذى من أجله أهلك الله سائر أعداء الأنبياء ، وأبقى عدو آدم وهو إبليس ، وهو يورد فى الإجابة عن ذلك آراء جيدة منها ما يظفر بتأييد نص كالإمهال والإنظار ، ومنها ما يعتمد على براعة الاستنباط ، وعمق التأمل ص ٦٢ من المخطوط .

الرسول الكريم السهو أو النسيان ، ومع إيراده قصة الصلاة الرباعية التي صلاها ثنتين وراجعه الصديق بسؤاله : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله - مع ايراده مثل هذه القصة وتعليلها بما هو معروف من أمر التشريع ، فإنه يقع في بعض الأخطاء التى وقع فيها بعض علماء التفسير وبخاصة في تعليقهم على الآية الكريمة « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم »(٣١) ويذكر قصة الغرانيق العلا . ولمناقشة ذلك بالتفصيل ورأينا في هذه الآية الكريمة مناسبة أخرى بإذن الله .

وبعد أن يستوفى الحديث عن الرسول الكريم ﷺ يورد قضايا أخرى تتصل بالوحى وبنزول القرآن منجما معللا ذلك بتعليلات معظمها مأثور ومعروف ، بل ومنصوص عليه في القرآن الكريم ذاته . ولكن أطرف هذه التعليلات ما استطاع أن يؤيده بالقرآن الكريم حين يقول : إن نزول القرآن على هذه الصفة من التفريق والتتابع عبر هذه السنين ، فيه مدعاة لدوام اتصال الرسالة بين الرسول ﷺ وربه فى كل وقت ، فيكون على علم منه في كل ساعة فلا يستوحش الرسول ، وهو ما يُقصد من قوله تعالى « كذلك لنثبت به فؤادك »(٣٢)، ثم يعلل نزول معظم آيات القرآن ليلا أو بدء نزوله كذلك ، لأن ذلك في نظره مدعاة للكرامة ، وأنسب للمناجاة ، وأهيب للقلب ، وأحفظ للسان وأكثر لذة بالمناجاة ، لأن أهل الليل يتلذذون بالمناجاة ليلا ما لا يجدونه نهارا ، وغير ذلك من التعليلات اللطيفة التي تزيد الوعى الاسلامى ثراء وحيوية .

٢ - **الأنبياء والخصائص** : إلى جانب خصائص نبينا ﷺ التى أفرد لها العلماء مؤلفات ضافية ، وخصها المؤلف بقسط كبير من عناية في كتابه هذا ، يورد بعض خصائص الأنبياء الآخرين وهو

---

(٣١) الحج / ٢ في ثنايا آيات سورة النجم .

(٣٢) الفرقان / ٣٢ . والواقع أنه يورد توجيهات كثيرة تتعلق بمهمة التشريع وربطه بالأحداث كما تتعلق بالنسخ وغير ذلك من المسائل التي أسهب العلماء في بحثها . يستغرق حديث المؤلف عن هذا الجانب أكثر من ثمان وعشرين صفحة من صفحات المخطوط المذكور .

يطنب كثيرا في الحديث عن ابراهيم الخليل وولده اسماعيل ، عليهما صلاة الله وسلامه . فيعالج في هذا الرسول الكريم مكانته من بين الأنبياء وما اختص به من الخلة وهو يبحث هذا المصطلح بحثا لغويا مستفيضا ، فيقلبه على وجوهه المختلفة من حيث حركة الخاء ومن حيث المعاني الممنوحة لهذا اللفظ من الناحية اللغوية ، مستشهدا على كل معنى بما تيسر له من الشعر أو الحكم المأثورة .

ومن أطرف ما يتعرض له المؤلف ما يثيره من أسئلة حول علة أمر الله لنبينا ﷺ باتباع ملته ، وكونه أمة وحده وتفسير ذلك ، ومفهوم الإمامة التي منحها الله إياه - والمؤلف لا ينسى في هذا الصدد غمز هؤلاء الذين ينادون بعصمة الإمام المطلقة وهو ينقدهم نقدا لاذعا ، مستندا إلى نفس الآية القرآنية التي يخبر الله فيها نبيه ابراهيم - عليه السلام - بأنه جاعله للناس إماما . . فنص الآية « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدى الظالمين »[٣٣] فهذه الآية تدل على أن الإمامة لا ينص عليها ، وإنما تمنح بمقتضى مؤهلات وكفاءات معينة متوجة بالفضل الإلهى والإنعام الربانى ، وأن الذنب والظلم يمنع الإمامة ويسقطها ، ولو كانت بالنص لأجيب طلب ابراهيم عليه السلام ، بجعل جميع ذريته أئمة ، وهنا علم الخليل عليه السلام أن من ذرتيه من سيحرم الإمامة لفسقه وظلمه .

(أ) ومن أطرف ما أورده المؤلف فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام تأملاته حول الخلة الإبراهيمية وتعليلها والمقارنة بينها وبين المحبة[٣٤] ، ثم في أشراكه مع نبينا في الصلاة والسلام عليه في الصلاة عند الجلوس للتشهيد ، وما يذكره ابن العماد في هذا الصدد طريف لطيف . ولا يدع الحديث عن الخليل عليه السلام حتى يبرز نقاطا هامة ومواقف خالدة ومميزات بارزة ، وخصائص باهرة في حياته وتغطى الأسئلة التي يثيرها في هذا السياق علة الأمر باتباع ملته ،

---

(٣٣) البقرة / ١٢٤ .

(٣٤) وظاهر أنه يستمد من تزيين الأسواق للأنطاكى

وتسمية الله له بأبينا ، وكوننا مع نبينا صلى الله عليه وسلم أولى الناس باتباعه . ويستند في كل ما يورد إلى أدلة موثوق بها تماما من الوجهة التاريخية ومن الوجهة القرآنية ، إذا صرفنا النظر عما يثيره الشكاك من المستشرقين(٣٥)ومن شايعهم من الكتاب الذين ذهبوا ضحية هذه البحوث المصممة للنيل من الأصل العربي بعامة والأصل النبوى المحمدى بخاصة ، وهى بحوث تعتبر امتدادا للنزعة اليهودية الحاقدة التي حملها الحقد على التبديل والتحريف فيما أنزل الله ، ووقر في صدور الذين أوتوه وصدقوه .

ثم يثير المؤلف سؤالا آخر يتعلق بسؤال ابراهيم ربه الثناء الباقى في الأجيال اللاحقة في قوله كما يحكى القرآن « واجعل لى لسان صدق في الآخرين »(٣٦)وهو في إجابته يشفى الغلة بما يذكر من مقارنات بين مواقف الصالحين والأخيار الذين يسألون أن يجعلهم الله للمتقين إماما(٣٧)، ويستطرد المؤلف في طول باع وعميق ثقافة في مواقف الأنبياء من الأدعية والمطالب الخاصة التي قدموها إلى الله ـ سبحانه ـ وكيف يتضح عند التحليل الدقيق أنها مطالب من أجل الصالح العام للبشرية . والأوجه التي يذكرها في تفسير هذه الآية الكريمة « واجعل لى لسان صدق في الآخرين » تنم عن سعة اطلاع وصدق وتأمل ، ويصدق معظمها ما ورد من نصوص صحيحة لا مجال للشك فيها ، ولعل أطرف المعانى التي يقدمها لهذه الآية هو أن ابراهيم ـ عليه السلام ـ يطلب أن يكرمه الله بألا يعاين فيه إلا صدقا بحيث لا يقع أحد بسببه في المعصية ، وهو يربط ذلك بشرح مستمد من مثال مريم وعيسى عليهما السلام ، إذ قالت « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »(٣٨)حتى لا يقع أحد في المعصية بسببى فيقع في عرضى وذلك شفقة منها على الخلق لا على نفسها ، أما ربط ذلك بعيسى عليه السلام فيحلله المؤلف على هذا النحو ، وهو أن النصارى كذبت عليه بأنه ابن الله ، فيستحى يوم

---

(٣٥) من أمثال هيوم ورسل حول حقيقة وجود إبراهيم تاريخيا ، ونأسف لأن بعض الزملاء المعاصرين يرددون مثل هذه المقالات دون أن يردوا عليها .

(٣٦) الشعراء / ٨٤ .

(٣٧) كما ورد في آخر حزب من سورة الفرقان في صفات عباد الرحمن .

(٣٨) مريم / ٢٣ .

القيامة حين يقال له « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ »[٣٩] فكذلك خشى إبراهيم أن يكذب عليه فيستحى .

وإنى لأُذَكِّر القارىء الكريم بأن التقوّل اليهودى على ابراهيم وكذلك الوصف النصرانى له قد كذّبه القرآن وبرأ الله إبراهيم مما قالوا ونسبوا ، فقد نفى أن يكون يهوديا أو نصرانيا ، وأثبت أنه كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين[٤٠].

ويقارن المؤلف بين إجابة الله لابراهيم بإرادته كيفية إحياء الموتى بتجربة يقوم بها إبراهيم نفسه ، وعدم إجابة الله لموسى في طلبه الرؤية . ويورد في هذا المقام تحليلات دقيقة تتصل بعلم الكلام والفقه والأصول والتاريخ العام والثقافة اللغوية والأدبية الممتازة ، دون أن يقحم نفسه فى إثارة الخلاف بين وجهات النظر السنية والاعتزالية .

ويلفت ابن العماد نظر المسلم إلى حقيقة قد تند عن ذهنه، وهى أن الله كافأ كل نبى دعا للأمة الإسلامية مكافأة عظيمة بسبل شتى ، فمنهم من كافأه بجعل الأمة الإسلامية ذاتها تبادله تحية بتحية كإبراهيم عليه السلام ، فإننا نورد اسمه الشريف مقرونا الى اسم نبينا ومشتركا معه في شرف صلاة الله وسلامه عليه ، وذلك لأنه دعا لنا بأعظم دعاء وأجمل منة ، وأجل رحمة ، وهو أن يرسل إلينا هذا الرسول الخاتم ، الذى هو في الواقع رحمة الله للعالمين .

ومن الأنبياء من تولى الله بنفسه السلام عليه لقاء دعائه بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات ولكل من دخل بيته مؤمنا وهو نوح عليه السلام ، إذ قد حياه الله سبحانه وسلم عليه ، ونحن الأمة الاسلامية نردد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى « سلام على نوح في العالمين »[٤١].
إن ابن العماد بهذا يبدِّد سُحُبا خَيّمت على بعض الكتابات الاسلامية الخاصة بهذا النبى

---

(٣٩) سورة المائدة / ١١٦ .
(٤٠) انظر سورة آل عمران / الآيات ٦٥ ـ ٦٨ .
(٤١) الصافات / ٧٩ . ويركز ابن العماد على عمومية الاسلام وتفرده بالإيمان بجميع رسله وأنبيائه دون تفريق مما يدحض دعوى التعصب والضيق .

الكريم الذي لبث في قومه مجاهدا في الدعوة إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . فقد كان بعض هذه الكتابات رعناء متعجلة ، حين أنحت باللوم على نوح لدعائه على من كفر من قومه ، مع أنه معدود من أولى العزم من الرسل .

(ب) **ابتلاء إبراهيم واسماعيل** : يذكر المؤلف أنماط الابتلاء وصوره التي تواجه الأنبياء والرسل ، مبينا حكمتها العامة ، وأسرارها الدقيقة ، ملاحظا أن هذا الابتلاء في صوره المتعددة ، وأساليبه المتنوعة ، كثيرا ما يجمع بين شخصيتين من الأنبياء ، تكون إحداهما أبا للأخرى ، كما تم بين إبراهيم واسماعيل ، ويعقوب ويوسف وداود وسليمان ، كما قد تكون بين الأخوين كما وقع مع هارون وموسى ، أو بين قريبين كما حصل لعيسى ويحيى عليهما السلام . ومع أن المؤلف يلتزم بإيراد الدقائق واللطائف فحسب فيما يتصل بقضية الابتلاء ، إلا أنه لا ينسى في كل مناسبة أن يستنبط الدروس والعبر ويوجه الأنظار إلى السنة الألهية العامة ، والقانون الربانى المتعلق بهذا المبدأ « الابتلاء »[٤٢]. بحيث يجعله المحور الذى تدور عليه هذه الحياة في نمطها الواقعى المصمم من أجل غاية إلهية وحكمة عالية ، وكأنه في حصيلة تحليلاته وتعليلاته وشروحه وتعليقاته وتأملاته إنما يدور في الإطار القرآنى المتعلق بهذه القضية ، قضية الابتلاء بمستواه العام فيما يتصل بالبشر، وبمستواه الخاص فيما يتصل بالأنبياء والرسل ، فالله ـ عز شأنه ـ خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا[٤٣]، ولا ينبغى أن يظن المؤمنون أن يتركوا لمجرد إعلانهم الإيمان دون أن يفتنوا ويتعرضوا للمحن والابتلاء ، وعلى قدر الهمم يكون الابتلاء .

ومن أروع ما يقدمه المؤلف من أسئلة وأجوبة تتعلق بهذه المسألة ـ مسألة الابتلاء ـ ابتلاء

---

(٤٢) لاستيعاب صورة شاملة لهذا المبدأ في حياة البشر بعامة وحياة الأنبياء بخاصة انظر : كلام سهل بن عبد الله التسترى حـ ٢ مكتبة الشباب تحقيق كاتب هذا المقال ، وقارن : من التراث الصوفى حـ ١[٣٨] للكاتب أيضا ، وانظر المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى ، تحقيقنا كذلك .

(٤٣) سورة الملك /٢ ونص الآية « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

ابراهيم(٤٤) وولده اسماعيل وقصة الذبح والفداء التي يحلل جوانبها وزواياها وملابساتها بما يشمل حكمة الايحاء بها مناما ، وما يكتنف مواقف الأبوة والنبوة الصالحة البارة ، وغاياتها ونتائجها بما يدحض القصص الاسرائيلي الوارد في العهد القديم عن هذه القصة .

إن من المسائل الهامة في مقارنة الأديان حقا مقارنة القصص القرآنى المتعلق بالأنبياء والرسل بما ورد في التوراة الحالية ، وما تتضمنه الأسفار الإضافية ، وما سجل من الأقوال الشفهية التي صدرت من الأحبار والرهبان ، وبخاصة فيما يتعلق بقصة الفداء هذه .

فنهج التوراة يبرز إبراهيم مخاتلا خداعا ، يجر ولده اسحق(٤٥) - ولاحظ تغيير الاسم - إلى نزهة صيد مزعومة ويصطحب من الخدم من يجمع الحطب إيهاما ووعدا بصيد ثمين يذبح ويجلس الجميع على شوائه ، ويفرح الطفل المسكين بهذه الرحلة الممتعة ليفاجأ بمباغتة الأب له بأعلى الجبل ، موثقا إياه ، وهامًّا بذبحه إلى آخر هذه القصة ' التي تفقد المضمون غايته النبيلة ، وتلغى كيان الولد وشخصيته ، وتسلب النبوة شرفها وصدقها ، وشتان بين هذه الصورة القاتمة المخزية ، وبين الصورة التي رسمها القرآن لشخصيتين عظيمتين ، يحار المرء في تفضيل عظمة إحداهما على الأخرى .

بل إن القرآن يبرز شخصية الإبن أروع ما تكون ، وأنبل ما يتصور ، فحين يخبره الأب بأنه يرى في المنام أنه يذبحه، يجيبه الولد على الفور بقوله « يا أبت أفعل ما تؤمر »(٤٦) فلم يقل : افعل ما ترى ، وفق ما قال أبوه ، ولم يشر إلى أن ذلك رؤيا أو منام لا يبلغ مرتبة اليقظة ثم هو يتبع ذلك بما يسهل مهمة الوالد عند احتمال حيلولة الشفقة دون التنفيذ ، أو احتمال مجرد التردد ، لا حرصا من الوالد ، بل رحمة وخوفا من جزع الولد - يسهل الولد هذه المهمة بقوله « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . هكذا في أدب النبوة الملتزم بالإسلام إلى الله ، والاعتماد عليه في التخلق بالصبر . فلم يَشُبْ هذا القول غرور الشباب ،

---

(٤٤) وإليه الإشارة بقوله تعالى في سورة البقرة /١٢٤ « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .
(٤٥) وقد انخدع بعض المفسرين ببعض الاسرائيليات فأيدوا كون الذبيح أسحق مع تجافيه عقلا وعادة .
(٤٦) صورة الصافات / ١٠٢

واعتداده بقوته واستطاعته ، ولو لم يكن في هذا الأدب النبوى ، لقال مثلا : ستجدنى صابرا مهما اختبرتنى ، ولكنه توفيق النبوة وعصمتها ، وأدب العبودية واستحضارها ، ولا غرو أن يحكم القرآن بأنهما أسلما ، ولم يقل أسلم الولد نفسه ، أو أسلم الوالد أمره ، بل قال : « فلما أسلما وتله للجبين »(٤٧) .

ولا نريد أن نستطرد في تعداد نقاط المقارنة بين النص القرآنى ونص التوراة وما كتب حوله من تراث ، وإنما نريد أن نؤكد أن المؤلف لم يترك دقيقة من دقائق هذه القصة ، ولا رقيقة من رقائقها ، إلا وأثار حولها التساؤل ، وقدم عليها الأجوبة . ومن الحق أن يقال إن بعض هذه الرقائق والدقائق والأجوبة عليها يعتبر ثمرة اجتهاد وتأمل قابل للبدائل ، ومحتمل للأخذ والرد ، لكنه مع ذلك غير مرفوض لعدم مصادمته لأصول ومصادر قطعية ، من الأصول والمصادر الإسلامية .

جـ - ابتلاء يعقوب ويوسف : يستعرض المؤلف فى أسئلته الدائرة حول هذا الموضوع بادئا بعلة ميل يعقوب إلى يوسف دون إخوته ، ومقدما آراء عدة . ويبدو أنه عندما يريد أن يشعر قارئه بأنه يرجح أحدهما يستجمع لدعمه مرشحات وأقيسة لحوادث أخرى ثم يدع القارىء يتبنى ما يشاء من هذه الآراء ، وجميعها في العقل والعادة والعرف مقبولة ، ولكن أدخلها في القبول والرجحان حسب ما قدم من ترشيحات ، ووفق ما يتصل بموضوع الابتلاء ذاته هو ما ذكره من أنه سبحانه ابتلاه بمحبته إليه في قلبه ، ثم غيبه عنه ليكون البلاء أشد عليه لأنه كيٌّ ، ولا كيَّ أشد من كيِّ الولد ، ألا ترى أن نوحا - عليه السلام - دعا على الكفار فأغرقهم فلم يحترق قلبه ، ولما بلغ الغرق ابنه صاح وقال « رب إن ابنى من أهلى »؟(٤٨). ويورد

---

(٤٧) الصافات / ١٠٣ وتمام الآيات « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين » [١٠٤ - ١٠٥] .

وردت هذه القصة في السفر الأول من التوراة (سفر التكوين) الاصحاح الثانى والعشرون ، ١ - ١٣ طبعة العيد المئوى ١٩٨٣ م .

(٤٨) هود / ٤٥ .

المؤلف رأيا مأثورا يرجح أنه مستمد من الاسرائيليات ، ولكنه لا يحمل ما يتعارض مع الأصول الإسلامية ، بل ربما وافق الوقائع في ظاهرها كما وردت في التراث الاسلامي.وملخص هذا الرأى أن المَلِك أو العزيز عندما طلبه ليدبر شئون الخزانة ويوجه الاقتصاد حتى تجتاز البلاد المحنة المطلة - قال له إنى أحبك فقال له يوسف : أرجو ألا تحبنى فإن والدى أحبنى فوقعت في الرق والعبودية بسببه ، وأحبتنى زليخا فوقعت فى السجن ، ومن أحبنى يبدو أنه تصيبنى منه محنة . وهذا الرأى كما يبدو يجعل المحنة والابتلاء ليوسف لا لوالده .

أما مسألة التفريق بين يوسف ووالده،فإن المؤلف يورد فى أسبابها أفكارا متباينة يتضح استمدادها من دوائر كتابية ، ولكن بحذر ، إذ يقرن إليها بعض الشواهد القرآنية التي لا تدل صراحة على مثل هذه الأفكار ، وإن كانت لا ترفضها . مثل كون يعقوب عليه السلام حين طلب منه أبناؤه أن يرسل معهم يوسف - لم يعلن صراحة اعتماده على الله واستحفاظه ليوسف وإخوته ، وإنما عبر عن حزنه لمجرد الذهاب به ، وخوفه من أن يأكله الذئب ، على حين أن هؤلاء الإخوة أنفسهم حين واجهوا أباهم للمرة الثانية طالبين أخاهم من أبيهم حسب أوامر يوسف الصديق ، الذى كان على الخزائن ، أجابهم بقوله « هل آمنكم عليه إلا كما أمنكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين »[٤٩].

ولا جدال فى أن تسلسل الأسئلة وتدرجها يوحى بصفة قاطعة بأن المؤلف يضع نصب عينيه ما ورد في سورة يوسف التي سميت فى القرآن الكريم بأحسن القصص ، والتى تظفر من عناية المؤلف بقسط وافر من التحليل والتفسير والشرح والتعليل فى شتى مواقفها وأحداثها بما في ذلك وجه تسميتها بأحسن القصص ، ودور المجافاة والغيرة والحسد ، وحقيقة خلو وجه الأب للأبناء ، وعلة انبهار امرأة العزيز به مع دوام العشرة ، وتقطيع النسوة أيديهن★ ثم الحكمة في شكر يوسف ربه على إخراجه من السجن ، وعدم فعل ذلك بالنسبة لاخراجه من الجب وذلك

---

(٤٩) يوسف / ٦٤ .

★ ولم لم تقطع زليخا يدها ؟ وقد أجاب عن ذلك بأنه كان معها فلم تكن تخشى الفراق ويذكر المؤلف تعليلات أخرى لا تخلو من طرافة .

في قوله تعالى حاكيا عنه « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتى[٥٠] . . وهنا نجد كلاما نفيسا للغاية يليق بهمم الأنبياء ومكارمهم وقد فتح عليه كل ذلك قوله تعالى حاكيا عن يوسف لإخوته « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[٥١] .

كما تطرق الأسئلة مدة السجن ، وهو يذكر فى الإجابة الآراء بصيغة التمريض وبخاصة هذا الرأى القائل بأن مدة السجن كانت ثنتى عشرة سنة بعدد حروف « اذكرنى عند ربك »[٥٢] التى قالها يوسف فيما يحكيه القرآن الكريم . وفى هذا السياق يورد المؤلف قول رسولنا ﷺ « رحم الله أخى يوسف ، هلا قال العافية أحب إلى » أى بدلا من قوله « رب السجن أحبُّ إلى » وفى رواية عنه ﷺ أيضا أنه قال : لولا كلمة يوسف ما لبث في السجن طوال ما لبث . والقارىء مدعوٌّ إلى الاستيثاق من صحة مثل هذه الأحاديث .

وينتقل المؤلف إلى تعليل تأخير استغفار يوسف لإخوته بقوله فيما يذكر القرآن الكريم « سوف أستغفر لكم ربى » ولم لم يستغفر لهم في الحال ، ويذكر أقوالا عدة يرجح مما يليق بالأنبياء وما ترشحه الشواهد الأخرى بالنسبة لالتزام الأنبياء بآداب العبودية وانتظار الإذن من الله سبحانه ، وهنا تحلو المقارنة بين استغفار ابراهيم لأبيه ، واستغفار يوسف لإخوته في إسهاب رائع يعلم درسا قيما في آداب النبوة والاستغفار . ولعلّ أليق الأقوال في هذا الصدد هو القول بأن الأنبياء دائما لا يصدرون إلا عن الأذن من الله تعالى . ويوسف قد علم أنه وقع بينهم وبين الله ، ثم بينهم وبينه ، فكان لابد أن ينتظر حتى يؤذن له .

ولا تغفل الأسئلة مسألة الصبر وبث الشكاية إلى الله من يعقوب عليه السلام.ويبدو المؤلف ملما حقا بأدب القرآن الكريم ، ومستوعبا لمعظم مواقف الأنبياء كما عرضها القرآن ، فهو في

---

(٥٠) يوسف / ١٥٠

(٥١) نفس السورة / ٩٥ . ويورد المؤلف تعليلات غاية في الفطنة .

(٥٢) واضح أن ابن العماد لا يحسب الحرف المشدد بحرفين وإلا لعده ثلاثة عشر .

هذا المقام يوضح أن الصبر يكون مع الشكاية إذا كانت شكاية من النفس إلى الخالق وهو جائز . ألا ترى أن أيوب عليه السلام . . قال « إني مسنى الضر» ومع ذلك قال عنه ربه « إنا وجدناه صابرا نعم العبد ، إنه أوّاب » ؟

ويختتم المؤلف موضوع الابتلاء المتعلق بيعقوب ويوسف وأسرته وما تنداح عنه من ثمار ودروس وعبر ، وأجمل ما علل به سجن يوسف ووقوعه في الرق هو استشعار الرحمة للعبيد والسجناء إذا تولى سلطة أو امتلك مصيرا ، كما ابتلاه بجفاء الأقارب والحساد ليعتاد الاحتمال من القريب والبعيد ، وابتلاه بالغربة ليرحم الغرباء ، ثم ليريه نعمة التلاقي بعد الفرقة والاغتراب . وهذا لعمرى مما يشحذ همم المسلمين ، ويزرع فى قلوبهم بذور الأمل والثقة والاعتزاز .

وحبذا لو كان المؤلف على استعداد لإثراء البحث حول حقيقة التفصيلات ونقاط التحول في قصة يوسف الصديق بمقارنتها بما ورد في التراث اليهودى ، إذن لبدأ جلال الفرق وروعته بين الحق والباطل وبين الجمال والخيال ، بل بين الكمال والخبال »[٥٣] .

(د) **ابتلاء موسى وهارون عليهما السلام** : مع إشراك موسى وهارون في حمأة الابتلاء ، فإن المؤلف يركز على الشخصية الموسوية ويتناولها من نشأتها المبكرة في ضوء الآيات القرآنية ، وإن كان يقفز بين الحين والحين قفزات زمنية ليظهر نسيج حياة هذا النبى الكريم الذى أعطى في النهاية شرف التكليم اعدادا لمهام ثقيلة ،ودعما لتحمل أمة وشعب كثير التمرد ، صعب المراس ، وقد جمع له من الأعداء كما يذكر المؤلف ما لم يجمع لنبى قبله ، ويكفى أن يكون من بينهم فرعون ، وهامان ، وقارون ، ومردة اليهود .

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نستقصى ما أورده المؤلف عن جوانب الابتلاء وزوايا التميز والخصائص التي اكتنفت بحالة موسى وهارون ، ولكن يحسن أن نورد بعض اللمحات

(٥٣) تحت الطبع دراسة تتعلق بهذه المقارنة في الجزء الثانى من كتابنا الإنسان والأديان (دار الثقافة بالدوحة) .

والدقائق التي يوجه المؤلف إليها الأنظار ، فمثلا أمر أمه بإلقائه في اليم إذا خافت عليه فيه دلالة صريحة على خرقه سبحانه للعوايد ، ومخالفة أفعاله مخالفة صفاته لأفعال وصفات العباد . وفيه تعليم لسائر البشر بأن جميع آفاق الكون وأبعاده تنقلب صدرا حانيا إذا فاضت عليه رحمة الله مصروفة إلى من يشاء كيف يشاء .

والمؤلف يشير إلى حادث عجيب يتصل باحتراق لسان موسى وعدم احتراق أصابعه ساعة الاختبار الذى أجراه فرعون ليكتشف مدى وعيه وقصده للإيذاء . ومن المعلوم أن الإنسان إذا أمسك جمرة فإن أول ما يتأثر أصابعه ، بحيث تجعله يقذف بها ، وهنا نقرأ تبرير المؤلف لما حدث بأن الله أراد ألا يؤاكل فرعون فتجب عليه حرمة المؤاكلة ، ثم ليكون ذلك دليلا على إعجازه ، فيقول أخرجنى من عندك معلولا ذا عقدة ، ثم لما أذن لى صرت فصيحا متكلما ، ثم يورد المؤلف أقوالا أخرى كالقول بأنه أراه أن الرب يقدر على تصحيح المرضى ، ثم في النهاية كان ذلك سبب نجاته من القتل . ويكفى أن يكون من غاية الإعجاز الربانى أن يجعل مصدر الخوف نفسه هو مصدر الأمن والأمان والرعاية بسلطان الله عز وجل وحكيم تدبيره ، إذ لا يمكن أن يدور بخلد عاقل أن يكون بيت فرعون الطاغية المتتبع لذرية بني اسرائيل من الذكور هو المكان الذي يلجأ إليه موسى ، لكنه الإعجاز الإلهي . وهنا يستطرد المؤلف إلى نقطة هامة وعامة ، وهي أن الأشياء في حد ذاتها تقبل بإرادته سبحانه أن تكون صالحة للشيء وضده ، وبالنسبة لأفراد مختلفين ، فالبحر كان مصدر عقوبة لفرعون ، ولكنه كان مثابة رحمة لموسى وقومه ، والنار مخوفة مدمرة ، ولكنها كانت بردا وسلاما على إبراهيم ، ويعدد المؤلف الأمثلة التى ترسخ عقيدة الإيمان والثقة في الله سبحانه وتعالي ، وهذا هو الغذاء الروحي والعبر الغالية المستمدة من هذه الأحداث والمواقف السالفة .

وهناك تحليلات يسوقها ابن العماد لإرسال موسى بالعصا ، وربط معجزاته بالحجر ، سواء كان لوحا يتضمن النصوص المقدسة ، أو قطعة ينبجس منها الماء وفق عدد الأسباط والقبائل ، وبعض هذه التعليلات مقبول واضح ، والبعض الآخر يعوزه الدليل .

والمؤلف بعد ذلك مولع بالمقارنة بين ما قد يبدو متشابها من مواقف الأنبياء مع اختلاف الأثر

النفسي ، فهو يقارن مثلا بين خوف موسى عليه السلام من العصا ، وعدم خوف ابراهيم عليه السلام من نار النمروذ ، ومن أطرف تعليلاته في ذلك قوله إنه خاف من العصا لأنه قال : هى عصاى ، فأراه الله أن من اتكل على غيره يعقبه الفرار ، ولذلك ناداه وأمّنه ، لأن من اتكل بحق عليه يعقبه القرار (أى الثبات) .

كما يقارن بين قوله الله سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام « فقولا له قولا لينا »(٥٤) وبين قوله سبحانه لنبينا ﷺ « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »(٥٥) ويتساءل المؤلف عن السبب ، ويجيب بأن طبع محمد ﷺ كان على اللين والرفق ، وطبع موسى عليه السلام ، على الصلابة والغلظة ، ثم يورد تعليلات أخرى لا تخلو من طرافة ويختمها بتعليق بعض الصالحين على قوله تعالى « فقولا له قولا لينا » إذ تنهد فقال : « يا رب ! هذا برُّكَ بمن عاداك ، فكيف برك بمن والاك » ؟ ولعل أدخل التعليلات في القبول هو قول المؤلف إن الأمر بالرفق إنما كان لتثبيت حجته على فرعون ، فلا يملك أن يقول متعللا : لقد أغلظ علىّ الدعوة ، فلذلك لم أقبله ، وقد يرجح ذلك قوله تعالى « لعله يتذكر أو يخشى » .

وينتقل المؤلف إلى معالجة تعليل سؤال موسى عما في يمينه ، فيورد من التعليلات والتحليلات اللطيفة الدقيقة مستعينا بالخصائص اللغوية التي قد تخفى على كثيرين كالتعبير باسم الإشارة دون الاقتصار على ما فى اليمين مع استخدام أداة البعد « تلك » ثم التقريب بقوله يمينك إلى آخر النكت البلاغية واللغوية .

والحق أن المؤلف يسترسل في إسهاب وتعمق في جزئيات المواقف والأحداث الموسوية كخلع النعلين ، واختصاص الجبل بالوعد بالكلام الالهى عليه ، وعلة اختصاص موسى بالكلام مباشرة ، والعلاقة بين الكلام المتاح والرؤية الممنوعة ، وأمارات الكلام الإلهى ، وكيف عرف موسى أنه كلام الله سبحانه ، وأثر الكلام على الحواس والملكات البشرية ، ويعقب

---

(٥٤) طه / ٤٤ .
(٥٥) التحريم / ٩ .

ذلك استفاضة في مسألة الرؤية الإلهية ـ وهى وإن كانت قضية تتصل بالجانب الأول الذي سبقت الإشارة إليه ، إلا أن المؤلف هنا يربطها بسؤال موسى ليناقش علة المنع أولا ، ثم ليستعرض الظواهر الطبيعية والآثار الفعلية للتجلى الإلهى ، وهنا نجد دقائق غاية في اللطف والطرافة بناء على التميز بين حروف الجر على ، واللام وفي ، بعد الفعل تجلى .

(هـ) **موسى والخضر[٥٦] عليهما السلام** : لقد أسلفنا القول بأن المؤلف مولع بالمقارنات بين مواقف الأنبياء وردود أفعالهم إزاء الأحداث والملابسات ، ونجد تصديق ذلك ـ زيادة على ما سبق ـ في تساؤله عن علة عدم صبر موسى مع الخضر بالرغم من قوله « ستجدني إن شاء الله صابرا . . . » وصبر اسماعيل تصديقا لقوله لأبيه « ستجدني إن شاء الله من الصابرين » والطرفان لم ينسيا الاستثناء بذكر المشيئة الإلهية »[٥٧] .

والمؤلف يستعرض الآراء التي طرحت حول هذه المسألة ، ومنها أن موسى كان متعلما ، والمتعلم لا يصبر إذا رأى شيئا حتى يفهمه ، أما اسماعيل فلم يكن كذلك ، لأنه علم عدل الله ، ثم إن موسى عليه السلام كان معروفا بالحيرة ، واسماعيل بالحلم ، والصبر من أشكال الحلم . ومن الآراء ما يؤكد صبر موسى أول الأمر ، لأنه لو لم يصبر لخاصمه الخضر وصرفه ، ومنها أن موسى لم يعلم ما فعل الخضر والجاهل بالأمر لا يصبر عما يرى ، أما اسماعيل فكان يعلم يقينا أن أباه يفعل هذا من أمر الله ، وهنا يوجه المؤلف نظر قارئه إلى اختلاف العبارة من الطرفين ، فاسماعيل أدخل نفسه في زمرة الصابرين فَوُفِّق ، أما موسى عليه السلام ، فتفرَّد بنفسه وقال ستجدنى إن شاء الله صابرا فخرج . ويبدو أن المؤلف في كل هذه النقاط ينقل من غيره حيث يضع في النهاية كلمة انتهى .

(٥٦) يقطع ابن العماد بين العبد المعلم من قبل الله سبحانه هو الخضر ويناقش مسألة ولايته أو نبوته ، لكنه لا يعرض الخلاف المستمر حول حقيقة حياته ونهايته كما هو معروف في كتب التراث .

(٥٧) يشيع القول في هذا المقام سهل بن عبد الله التسترى في « تفسير القرآن العظيم » في مواضع متعددة وفي كلامه الذي نشرناه ، وفى إجاباته التي سجلها حفيد تلميذه ابن سالم .

وينفذ المؤلف إلى أدق التفصيلات في حياة موسى ملتقطا في كل جزئية الحكمة والعبرة ، ويورد أسئلة محددة تتصل بقدرة موسى وصبره على الصوم أربعين يوما قبل المناجاة ، وعدم صبره على الجوع نصف يوم أثناء سفره لمقابلة العبد الصالح ، ثم علاقة الخضر بموسى وحقيقة كونه في نظره وليا ، وما كان لولى أن يعلو على نبى ، حتى وإن أعطى نوعا من العلم لا تحتاج إليه الرسالة أو النبوة؛إذ هما يحتاجان القوانين والتشريعات وايضاح المناسك والآداب والأخلاق التي يجب أن يتخلق بها العباد ، كما يحتاجان إلى الحدود والمعايير التى تضع لكل عمل وخاطر قدره من الثواب والعقاب حتى يصلح المجتمع .

ثم يناقش المؤلف ما شاع من آراء في التراث المتصل بقصص الأنبياء وبخاصة ما يتصل بالمآخذ التى أخذها موسى على الخضر مع سبق وقوع موسى في مثلها ، لكنه لا يدحضها إذ يبين أن الخضر ذكره حين قال « لتغرق أهلها » بأنه كان في البحر من غير سفينة ولم يغرق بغير ذنب ، ولما قال « لو شئت لاتخذت عليه أجرا » قال له أنسيت سقياك لبنات شعيب دون أجر ؟

ويمكن إجمال القول فيما عرضه المؤلف متعلقا بموسى وهارون وعلاقاتهما أن المؤلف لم يكن من هدفه التأريخ المنظم الشامل لحياة هذا النبى الكريم وأوجه صراعه مع البلاء والباطل ، بقدر ما كان من هدفه أن يسلط الضوء على مظان الخفاء والغموض في نقاط هذه الحياة انتظاما في السلك العام الذى مده لاستعراض أوجه الابتلاء التي تعرض لها الأنبياء .

لكم كنا مشوقين إلى الاستماع إلى تعليلاته وتحليلاته لجنوح بنى إسرائيل إلى الوثنية في حياة هذا النبى الكريم ، واستعراض أسباب الرجفة التى أصابت السبعين الذين اختارهم موسى ، وحقيقة شعيب ، ثم حقيقة الرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة ناصحا لموسى بالخروج والنجاة بنفسه من المدينة ، وحقيقة الدور الذى أداه بعض المؤمنين في البيت الفرعونى نفسه ، واستنباط شيوع عقيدة التوحيد والايمان بين أهل البلاد أنفسهم مما يدحض آراء المستشرقين الذين كرسوا جهودهم في دراسة الديانة المصرية القديمة في ضوء منهج يجعل عقيدة التوحيد عقيدة تطور ، نمت في أحضان السياسة والحضارة ، ونبعت في الأصل انبثاقا من

الوثنية الجاسية ، وكأن مصر لم يزرها نبى قط ، وكأن المواعظ التى ذكرها القرآن الكريم على لسان مؤمن من آل فرعون لم تكن ، وهى مواعظ تدل دلالة قاطعة على تغلغل عقيدة التوحيد والايمان إلى قلوب بعض آل فرعون ، ويكفي أن تلاحظ قوله تعالى حاكيا مقولة هذا المؤمن « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فان يك كاذبا فعليه كذبه ، وأن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم »(٥٨). أو قوله تعالى « ولقد جاءكم يوسف من قبله بالبينات حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا »(٥٩).

إن استعراض هذه الحقائق والمقارنة بينها وبين ما ورد في الأسفار الملحقة بالتوراة ، بل بأسفار التوراة ذاتها ابتداء من السفر الثانى يفرض على هؤلاء الباحثين مراجعة أنفسهم وبخاصة جيمس هنرى برستيد(٦٠) الذى خص الديانة المصرية بدراسة عميقة لم تقتصر على الدين وحده ، بل ضمت إليه الفكر والسياسة ، طبق فيها المنهج التاريخي والاجتماعى وحاول جاهدا إبراز حقيقة التطور في خطين متوازيين للفكر والدين معا ، دون أن يجعل للرسالات السماوية أو أثاراتها أى نصيب .

لقد كان غريبا حقا أن يعتبر برستيد مبدأ التوحيد ثمرة للتطور،وتعبيرا موسعا للموقف الأبوى ولتصور العدالة الاجتماعية التي سبقت في زعمه هذا المبدأ ، وكأن مبدأ التوحيد لا يمكن أن يكون هو المبدأ الفطرى الطبيعي الذى تستجيب له الفطر السليمة مع وحدة الكيان الإنسانى ووحدة الطابع العام الذي يطبع سائر الكائنات .

(و) عيسى المسيح عليه السلام : يناقش المؤلف الرأى القائل بتعدد أسماء عيسى وانحصارها في أربعة ، ويشير إلى المعنى اللغوى لكل اسم ـ وهو يفعل ذلك أيضا بالنسبة لداود وسليمان

---

(٥٨) غافر / ٢٨ (٥٩) غافر / ٣٤ ويلاحظ أن هذا المؤمن يذكر قومه برسالات الأنبياء .

(٦٠) وكذلك د . بتازونى *R. Petazoni* فى دراسته للديانة اليونانية ، وقد أثبتنا خطأ تطبيق المنهج التاريخي الاجتماعى وحده في تحديد نقطة الانطلاق الديني وفى تحديد طبيعة الأديان بصورة عامة ، كما أثبتنا خطأ المدرسة الفرنسية في تطبيق هذا المنهج وفى دعوتها إلى الدين العقلى . انظر الإنسان والأديان / ١ ص ٣٤ وما بعدها .

عليهما السلام - ويعرض في الواقع مختلف الآراء حول المعانى اللغوية الممنوحة لهذه الأسماء ، فيذكر الاسم عيسى ومعناه الأبيض في اللغة ، والكلمة ، والمسيح ، والروح ، ثم يتبع ذلك بالأقوال التي وردت عن حقيقة وكيفية مولده ثم يعلل هذه الأسماء في أوجه دلالاتها كما يناقش اسم والدته « مريم » ويعلل هذه التسمية ؛ فيذكر أنها مريم لأنها مرت في الطاعة مرور الحوت في اليم ، وقد سماها الله في القرآن سبع مرات ، ولم يسمّ من النساء غيرها ، وخاطبها فقال « يا مريم » كما خاطب الأنبياء ، وقال : « واذكر في الكتاب مريم » كما قال ذلك لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه . ويستطرد المؤلف في تعداد معجزاتها واصطفائها وجمعها مع نبى ورسول في آية واحدة في قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية »[٦١] ثم ينتهى المؤلف من ذلك إلى أن بعضهم قد ذهب إلى أنها نبية لما سبق بيانه ، والمؤلف لا ينفى ولا يثبت هذا القول .

وتمتد أسئلة ابن العماد لتتعلق بتفاصيل بعض الأحداث والمواقف لكل من مريم وعيسى عليهما السلام ، كالأمر بهز الجزع ، واجراء النهر والعلاقة بين الرطب والماء ، وحاجة الأول إلى بذل الجهد وعدم حاجة الآخر ، وعلة رفع عيسى إلى السماء ، وعلة عدم رده إلى الدنيا عقب ذلك مباشرة ، وعلة توصية الله له بالصلاة والزكاة ولم يكن له مال ، وعلة إخراس زكريا عليه السلام ثلاثة أيام ، وعلة إعطاء الله يحيى الحكم صبيا . ومعظم هذه التعليلات سيق بصيغة التمريض . ثم يناقش المؤلف فكرة ثناء المرء على نفسه وبخاصة الأنبياء ، فيأتى حقيقة بما لذ وطاب .

ومتى يكون الثناء على النفس تحدثا بنعمة الله ، ثم يقارن بين بعض أقوال عيسى ومواقفه ، وأقوال رسولنا الكريم[٦٢] ، لكنه لا يدخل في صميم المشكلة المتعلقة بنزول عيسى آخر الزمان

---

(٦١) المؤمنون /٥٠ وكذلك قوله تعالى عنها « وجعلناها وابنها آية للعالمين » الأنبياء / ٩١ .

(٦٢) ويسهب في تعليقاته على قول الرسول ﷺ « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » برواياته المختلفة ، ويربط بين واجب التحدث بنعمة الله وبين الأسلوب التربوى في الإعلان عن المكارم شحذا للهمم وتشجيعا لأهلها والمقتدين بها .

وإن كان يلمح بها عند إشارته إلى ضرورة إيمان اليهود به استنادا إلى قوله تعالى « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا »[٦٣].

(ز) **أيوب عليه السلام والابتلاء** : نلاحظ أن ابن العماد في الجزء الخاص بالابتلاء الذي نزل بأيوب وداود وسليمان عليهم السلام ينقل بتساهل غير معهود فيما سبق من أجزاء كتابه من مصادر مليئة بالاسرائيليات ، لا يخطىء الباحث أصولها ومنابعها في التراث اليهودي الذى بدأ شفاها على ألسنة الأحبار والكهان ، ثم كتب له أن يسجل وأن تضاف إليه شروح وتعليقات تشبع فضول الناس لاسيما أهل السير وأخبار الأولين . ونجد في هذه الفقرات أن معايير القبول والرفض قد اختلت لدى المؤلف ، وأغلب الظن أنه وقع أسير مرجع من المراجع العربية ، فنقل دون تمحيص ونقد كما عهدناه فيما سبق من نقول . ويظهر ذلك بصورة قاطعة فيما يتصل ببلاء أيوب وسليمان عليهما السلام .

صحيح أن القرآن الكريم أشار إلى بلاء أيوب وضراعته المحوطة بأدب النبوة الجليل إذ يقول عنه « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين »[٦٤] فلم يطلب كشف البلاء صراحة ، واما هو عبر عن حقيقتين لا سبيل إلى تكذيب أى منهما : حقيقة احساس وألم بالأذى الذي نزل به ، ويزيده القرآن الكريم إيضاحا فى آية أخرى « أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب »[٦٥] والحقيقة الأخرى أن الله أرحم الراحمين ، وصحيح كذلك أن ابن العماد قد أجاد التعليق حين تساءل عن معنى قوله : مسنى الضر ، وأجاب بقوله : « كأنه قال إن أقُلْ أصبر على بلائك أكن متجلدا ، وإن أقل لا أصبر أكن جزعا ، وإن أقل : اكشف عنى

---

(٦٣) يورد المؤلف غير ذلك قصصا حول عيسى ويحيى على خلاف ما يؤثر في كتب المواعظ والرقائق من حيث اشتهار الأول بالبشر والتفاؤل والانبساط ، واشتهار الآخر بالجد والصرامة والجهامة والمحاورات التى دارت بينهما حول أيهما أولى بالمحبة والقربي . . الخ . ويختم المؤلف حديثه حول عيسى عليه السلام بقوله : إن الله تعالى أكرم أربعة من الصبيان بأربعة أشياء : يوسف بالوحى في الجب وعيسى بالنطق في المهد ويحيى بالحكمة وسليمن بالفهم ، ص ١٥١ من المخطوط .

(٦٤) الأنبياء / ٨٣ .

(٦٥) سورة ص / ٤١ .

أكن متحكما ، ولا وجه لهذه الثلاثة ، وإن ترحمني فأنت أرحم الراحمين . وتتجلى العناصر الاسرائيلية في تحديد مدة البلاء ، وتعليلها ، وتحديد نوع البلاء ، والمؤلف هنا يستقصى صور البلاء بالحشرات والهوام والطيور بالنسبة للنمروذ وأصحاب الفيل وكثيرين من المردة والطغاة ، ودون أن يفطن أنه يتحدث عن نبى كريم شرفه الله بالتنويه والثناء المستطاب عليه في قوله عز شأنه « . . . إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب »[٦٦]. فأين هذا المقام من حالة أولئك المتمردين على دين الله والصادين عن سبيله كأبرهة مثلا الذى أرسل الله عليه وعلى جيشه طيرا أبابيل ؟ أو حال النمروذ الذي أهان أنبياء الله وحاد الله ورسوله ؟ .

إنه الخلط اليهودي في التراث الذي يعكس سوء رأى المحرفين في أنبياء الله ، وعدم التنبيه لما يليق بشأنهم وشأن مرسلهم عز سلطانه[٦٧].

وإننا لنجد في التوراة الحالية كثيرا من هذه الصور التي تنال من مكانة الأنبياء بل تنال مما ينبغى أن يكون لله من الكمال والجلال . ولا يمكن الدفاع عن مثل هذه العناصر كالبلاء بالدود الذى كوفىء بعد ذلك بصنع الحرير أو الابريسم والمطر الجرادى من الذهب، وغير ذلك من العناصر التي لا تجد سندا موثقا من كتاب أو سنة ، أو حتى اتفاقا بين من اختلقوها .

غير أن ذلك لا يمنع من تقرير أن المصنف يثير تساؤلات نابعة من المصدر الاسلامى الأول القرآن ، ومن هذه التساؤلات ما يؤكد ولعه بالمقارنة كما أشرنا سابقا مثل تساؤله : لِمَ قال الله تعالى لأيوب « فاضرب به ولا تحنث » وقال للنبى ﷺ « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » وهو يجيب بأن كفارة اليمين لم تكن لأحد قبلنا ، بل هى مما أكرم الله تعالى به هذه الأمة بدليل قوله تعالى « لكم »، ثم يورد رأيا آخر فيقول : لأن أيوب حلف غضبا لله ، لأن زوجته

---

(٦٦) سورة ص / ٤٤ .

(٦٧) وتوجد أمثلة صارخة لذلك في العهد القديم في غير موضع من سفر التكوين وسفر الخروج ، كما توجد تعليقات ضافية حول مواقف وحوادث دامغة فى :

Herbrew Literature (Special Ed.) (The World's Great Classics, Introduct. By E. Wilson.

« رحمة » كانت محرمة لأنها قصدت قطع ذوائبها لتبيعها وتشترى له لحم الخنزير ، بينما كان يمين نبينا ﷺ ابتغاء مرضاة أزواجه كما ذكر القرآن الكريم .

وهناك تساؤلات كثيرة تتعلق بتفاصيل انكشاف البلاء عن أيوب ، كما أن هناك تساؤلات تتصل ببلاء يونس، وعلة نسبته إلى الحوت ، ونهى نبينا أن يكون مثله وعدد الحيتان المشهورة في الدنيا ، ومدة اللبث في بطن الحوت ، وسبب هذا البلاء ، وحقيقة المخالفة ؛ وهنا نجد المؤلف بعد عرضه لمختلف الآراء ، يتيقظ فجأة ليدرأ شبهة راسخة في أذهان الكثيرين بالنسبة لتسمية يونس في القرآن بالملوم والمذموم وما أحيط ذنبه من تكبير وما تبع ذلك من نبذ ـ نجد المؤلف يعلق على قوله تعالى « ولا تكن كصاحب الحوت » أى في الاغترار بالله ، أو النظر إلى صغر الخطيئة في استعجال العذاب لقومه ، وفى الأمن من عذاب الله وغير ذلك . والأهم من ذلك هو قوله « وهذه الأحوال لا تدل على معصية محققة من يونس ، لأن الأنبياء معصومون ، وإنما هو تحذير من الأعمال الناقصة عن أحوال الكاملين ، إذ حسنات الأبـرار سيئات المقربين »(٦٨).

إننا نجد المؤلف بعد ذلك يحيا كليَّة في جو القرآن الكريم ، ملتزما بالتعليق على الأيات المتعلقة بيونس ، وهنا نقرأ له الطريف والمفيد من التعليقات الكاشفة عن الأدب الإسلامى وذلك بربط هذه التعليقات بما صح في مسند الإمام أحمد من أحاديث نبوية ، وأجمل ما تصادفه في هذا السياق تعليقه على قوله سبحانه « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون »(٦٩) إذ يقارن بين موقف الأزمة لكل من يونس وفرعون ، وكيف أغيث الأول وأغرق الآخر بالرغم من إعلانه الإيمان ، وهنا يسهب المؤلف في تعليقه على ختام الآيات الخاصة بفرعون « ءَالآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين ؟ »(٧٠) ويستمد من هذه الآيات أصولا في التربية الإسلامية .

---

(٦٨) ص ٣٧ ، ١٠٨ من المخطوط .
(٦٩) الصافات / ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٧٠) سورة يونس / ٩٠ .

(ح) **داود وسليمان عليهما السلام** : ينال داود قسطا وافرا من علاج المؤلف للعديد من زوايا سيرته وما اكتنفها من أوجه النعمة والبلاء ، وهو يبدأ بالتساؤل مباشرة عن مصدر الفتنة التي أحاطت بداود ـ هذا مع أن القرآن الكريم ينص على أنه قد « ظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب »[٧١] وهذا إثر تسور الخصمين عليه المحراب . وهو يعرض إجابات مختلفة لا يملك الإنسان ترجيح أى منها .

ولكن الغريب أن يتحدث المؤلف عن الخلفاء في الأرض ويرى أنهم ثلاثة :

آدم ، وداود ، وأبو بكر الصديق ، والأغرب من ذلك أنه يذكر أن بعض العلماء يرى أن هؤلاء الثلاثة عصوا قبل الخلافة ثم تابوا توبة نصوحا فجعلهم الله خلفاء ردًّا على الروافض ؛ لأنهم يقولون:يجب على الإمام أن يكون معصوما . وتزداد الغرابة حين يذكر أن آدم قد وهب داود من عمره ستين سنة ، فصار خليفة لأنه ممن نفسه بذلك ـ أى حسده . ثم يستطرد قائلا : إن الملائكة تخيرت على آدم فجعله الله خليفة ، وتخير طالوت على داود فجعله الله خليفة ، وتخيرت الأنصار على أبي بكر فجعله خليفة .

ووجه الغرابة من زوايا عدة ، فأية علاقة بين آدم وداود من حيث الخلافة؟ وأى معنى لأن يهب آدم لداود من عمره؟ إذ أن معنى لفظ داود كما يزعم في بعض الروايات « من لا عمر له » فكيف يخلق إنسان لا عمر له ، ثم يوهب له عمره بعد ذلك ؟ أليس هذا هو البداء الذي قالت به اليهود ؟ .

ثم لماذا ينفس آدم على أحد من أبنائه خلافته أو ملكه ؟ إنه التراث الاسرائيلي الذي شوه صور الأنبياء ، بل شوه الحقيقة الصافية والعقيدة النقية فى كمال الله وتنزهه فيما أورد من أقوال تدل على أن الله عز شأنه قد خلق آدم على صورة الرحمن . ونحن نجد في سفر التكوين ذكر ذلك صراحة لدرجة إثبات غيرة الله منه ، بل غيرة الآلهة المشاركين ـ تعالى عما يقولون علوا

---

(٧١) سورة ص / ٢٤ .

كبيرا ، ولا ندرى أين غابت الحاسة النقدية في ذهن المؤلف حتى ترك الكثير من الأفكار والآراء حول صفة خلق آدم البدنية وطوله .

إن المؤلف لم يفق فيما يبدو إلا عندما عرض الأثر اليهودى على أنه حديث نبوى فمنحه من التفسير والتأويل مما يتلاءم مع العقيدة الاسلامية ، حقا لقد عرض أقوالا أربعة في تفسير هذا الأثر ، لكنه فيما يبدو في جانب ما ارتآه الإمام الغزالى في روايتين ورأيين مأثورين له في عديد من كتبه . الذى يبدو أكثر ترجيحا في نظره أخيرا هو أن المعنى أن الله خلق آدم من أول وهلة على صورته التى هو عليها دون أن يمر بالمراحل التى مرت بها ذريته من نطفة إلى علقة ثم مضغة إلخ ويضم ذلك قوله تعالى فى سورة الحج « يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة . إلى آخر الآية الكريمة » .

على أن ما يذكره المؤلف بالنسبة لاسم داود ومعناه من لا عمر له ، ينقضه بعد ذلك بما يرويه عن ابن عباس .

إننا نؤثر الآن ألا نستطرد في ذكر النقاط والتساؤلات والتحليلات التي قدمها المؤلف حول داود وسليمان؛لأنها مطولة للغاية،ولأنها تحتاج إلى إبراز أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما وبين ما ورد في كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة ، وما ورد في التراث اليهودي - وعلى الأقل في العهد القديم .

وهذا الاقتصار إنما هو من أجل الانتقال إلى الجانب الرابع والأخير الذى رأينا أن نصنف تحته الأفكار والقضايا والمسائل .

الجانب الرابع : إن هذا الجانب في نظرنا يعتبر ذا أهمية خاصة من حيث كونه يتعلق بأسرار وحكم العبادات في الإسلام ، وهو لذلك في غاية النفع والخطورة من جهات متعددة . فهو يشبع فضول المسلم ، ويزيده يقينا وثقة وتمسكا بعباداته أملا في أن يحصل ثمراتها المباركة . وهو من جهة أخرى يخرس ألسنة الذين تجرأوا على العبادات والتكاليف فأسقطوها إما زعما بأنهم قد تجاوزوا مرحلتها التطهيرية فلم يعودوا بحاجة إليها ، وإما ظنا بعبثيتها وتحكمها وعدم

غنائها وكلاهما ملحد آبق متحلل من ربقة الدين ، ويجب أن يتخلص منه المجتمع المسلم . ثم إن هذا الجانب أيضا يبرز ما للعبادات في الاسلام من تميز وكمال خاص لدين أكمله الله وأتم به النعمة ، فلم يعد هناك مطمع لبلوغ أى نظام مبلغه ، بله أن يتفوق عليه .

ونحن لا ندرى ما إذا كان العلامة الألمانى فردريك هيلر قد اطلع على شيء مما عرضه المؤلف هنا عن الصلاة وهيئاتها وحركاتها وتشغيل الأعضاء فيها وعدد ركعاتها وارتباطها بالأزمنة والأمكنة ووظيفتها الحيوية في حياة الانسان وانسجامها مع حركة العناصر والأكوان وما إلى ذلك مما أفاض فيه المؤلف في هذا الكتاب ، ومما اعتمد عليه هيلر فى إثبات تفوق الصلاة الاسلامية على أية صلوات فى أى دين أو نظام من نظم البشر أو السماء .

إنه لا يستبعد انبثاث بعض هذه الأفكار في تراثنا الإسلامى الذي انتقل مزيجا متراكبا وانتقل عبر الأندلس وأثناء الحروب الصليبية إلى أوروبا مترجما إلى اللاتينية ، وقد تتابعت الشواهد على إفادة الأوربيين من جوانب كثيرة تضمنها التراث الإسلامى سواء كان تراثا علميا طبيعيا أو تراثا دينيا كلاميا أو فلسفيا . ولكننا نبادر فنقول إنه بالنسبة لكتاب هيلر عن الصلاة(٧٢) لا نجد أدلة مباشرة على الاقتباس ووجود الصلة التاريخية الحقيقية بين المؤلف الألمانى وما كتبه المسلمون ، اللهم إلا بصورة عامة مجملة .

والواقع أن ابن العماد في كتابه « كشف الأسرار » الذي نتحدث عنه قد تناول سائر العبادات في الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وصوم وحج ، مستقصيا الدقائق واللطائف التي تتضمنها هذه العبادات في عباراتها وهيئاتها وشعائرها وطريقة أدائها . ونرى أن حصيلة الدراية بهذه الأسرار ومحاولة استيعابها وصبها في الزاد الثقافي للمسلم ، يعين بصورة قاطعة على حسن أداء هذه العبادات باستشعار حكمتها وفهمها وتقديرها . صحيح أن كل دين لابد وأن يتضمن ما يسمى بالأمور التعبدية التي يجب أن تنفذ وإن لم يفهم لها المعتنق حكمة أو علة

---

(٧٢) ألفه هيلر بالألمانية وقد ترجم إلى الانجليزية بعنوان
F. Hailer, Prayer. History and Psychology (1958)

أو هدفا ، ولكن إذا جاز أن تتفتق الأفهام عن علل أو حكم لا تتصادم مع الأصول الاسلامية ، ولا تعارض حكما شرعيا ، ويرجى منها الفائدة ، ولا يخشى منها ضرر - نقول إذا كان في الإمكان ذلك فما المانع الذي يحول دونه ؟ قد يقال : إنه يخشى من ذلك أن يظن أننا نعبد لأننا نفهم، فإذا لم نفهم فإننا لا نعبد ، وبذلك نكون في الحقيقة عابدين لأفهامنا وعقولنا لا لربنا عز شأنه . والجواب على ذلك أننا نعبد لأن الله أمر ، وأمره دائما حكيم ، فإذا جاز لى أن أدرك حكمة لأمره ، لا أدعى أنها الحكمة الوحيدة الصحيحة وإنما هو الاجتهاد ، أما تنفيذ العبادة نفسها فإنه قائم سواء أدركت الحكمة أم لم تدرك ، إذا جاز ذلك فلم أحرم نفسى والمسلمين التمتع وزيادة الانشراح والانطلاق فى أداء العبادة عن فهم ودراية وحضور وإحساس ؟

إننى لأذهب إلى أبعد من ذلك فأدعى أنه يجب علينا - نحن المسئولين عن تثقيف المسلمين وتفقيههم في دينهم أن نعنى بهذا الجانب في هذا العصر بالذات توثيقا لعرى الدين والتخلق في نفوس الشباب الذى تزيده التعليلات والتحليلات والتفسيرات والاستدلالات تبصرا وتفهما واقتناعا .

غير أنى أضيف إلى ذلك أن من يتصدر لعرض مثل هذه الأسرار والتعليلات والحكم لابد أن يكون منتقيا بصيرا ، لبيبا فطنا، فيميز المقامات والأحوال والمستويات الثقافية التي يتعامل معها . فلو جاء مثلا عالم لشاب وقال إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض وأنت حين تذهب إلى هناك تسلم باليمين على اليمين - مع أن كون الحجر يمين الله في الأرض مستمد من حديث نبوى - نقول لو قال هذا العالم ذلك لشاب عادى، لأوقعه في فتنة، ما لم يكن الشاب مفعم الإيمان مشروح الصدر فيفهم بما يليق بالذات العلية ، ويقرن ذلك إلى قول الفاروق رضى الله عنه : أما إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك، ليرسخ في نفس الشاب جذور القدوة الحسنة في رسول الله ﷺ .

ولن يتسع صدر هذا البحث لاستعراض ما قدمه المؤلف من أسرار لجميع الأقوال والأفعال

المؤداة في الصلاة، والحكمة في عدد ركعاتها السبع عشر، وفي انحصار هيئة الانسان فيها بين القيام والقعود أو الركوع والسجود ، والحكمة في كون السجود على سبعة أعضاء ، وحقيقة الدقائق المرتبطة بالتشهد من تعود وتنوع الصلاة بين المثنى والثلاث والرباع وعلاقة ذلك بحقيقة الملائكة، وما لذلك من دقائق ولطائف ، إن لم تجد سندا صريحا فإنها لا تقبل رفضا أو تجريحا .

وكذلك الصيام وأسراره وما عرض فيه المؤلف من لطائف تصلح عدة وثروة للدعاة ، ومدعاة لنجاحهم في تحقيق أهدافهم من تحسين السلوك وأداء العبادة على الوجه الأكمل ، وبث روح الأمل والرجاء في نفوس الصائمين ، ولا تعدم الدقائق والأسرار والألطاف المسوقة للصيام سندها الشرعى من الكتاب والسنة إما تصريحا وإما تلميحا .

ولابد أن يضاف إلى ذلك إن الإلمام بمثل هذه الدقائق واللطائف سواء تعلقت بالطعام أو بالشراب أو بالآثام وأنماط السلوك المتدنية - الالمام بكل ذلك يمنح المسلم دعما وتسلحا وقوة عارضة ونصاعة حجة فى مواجهة العقائد الأخرى أو فيما يثيره الخصوم والأعداء ، كما أنه يمد المشتغلين بمقارنة الأديان برؤية تنفسح فيها الآماد وتتسع فيها الآفاق .

إن أروع ما يقدمه ابن العماد حقا يتجلى فيما عرضه من أسرار الحج ودقائق مناسكة وآدابه . لقد استدرك على الأمام الغزالى أمورا كثيرة دون أن يذكر ذلك صراحة، ولكنه يستمد من كل مصدر يراه يدعم الإيمان ويعمقه، وبخاصة فيما بدا من بعض شعائر الحج غير ظاهر الحكمة أو التعليل .

ولو لم يكن فيما ساقه المؤلف من أسرار وتعليلات وحكم وقضايا ومسائل تتعلق بسائر أعمال الحج الظاهرة والباطنة والقولية والفعلية وما يكتنفها من زمان ومكان - لو لم يكن في ذلك إلا إحكام الدائرة الإيمانية وتوثيق عراها بأبى الأنبياء ابراهيم، الأمة في ذاته وفى مكارمه، الأب الذى شرفنا الله بأبوته ، وصاحب الملة التى أمر نبينا باتباعها ، والساهر طول حياته وعبر سلسلة الأنبياء من ذريته على العقيدة الإسلامية - عقيدة إفراد الله بالإخلاص والعبادة - نقول

لو لم يكن إلا ذلك لكفى المؤلف بذلك شرفا ، وكفانا نحن أن نشرب الحجيج هذه الروح الواعية الشاعرة بمناسكها وقداسة مواضعها، والمشرئبة إلى نجاح المسيرة الإسلامية، وتجنيبها ما يقع فيه المسلمون الآن من وهدات مهلكة مدمرة، سببها نضوب هذا المعين من قلوبهم واختفاء هذه الصورة المشرقة من وعيهم ، وانسياقهم إلى عبودية مهينة لسيادة أشد مهانة ، وانفصام عروتهم من الحبل المتين والصراط المستقيم - القرآن الكريم - والمحجة البيضاء وأنماط القدوة التى لم تكن إلا مرايا تعكس من المكارم والفضائل والهمم والعزائم مما غير وجه التاريخ والأرض ، وما نشر الخير والأمن والبركة والتقدم والحضارة حيثما سقط الشعاع .

ما أكثر ما عرضه ابن العماد من أسرار العبادة ، وما أقل ما أشرنا إليه في تلميح.وإنا لنسأل الله سبحانه أن يمنحنا من العزم والوقت ما يمكننا من نشر هذا الكتاب القيم مع دراسة مقارنة لأهم قضاياه العلمية الطبيعية والدينية التاريخية والتشريعية والفلسفية،فما أحوج هذا الجيل إلى أن يقدم إليه زاد إسلامى لا تخبو فيه العاطفة ، ولا ينضب فيه الفكر ، ولا يهمل فيه السلوك .

إن الكيان الإنسانى وحدة متماسكة تتعانق فيها هذه الكفايات الثلاث : الفكر والوجدان والسلوك ، وما أفدحها خسارة إذا أهملنا كفاية من هذه الكفايات .

وغنى عن البيان التأكيد بأن معايشة القرآن وإطالة عشرته قد يسرت لهؤلاء العلماء سبيل التثقيف الموسع الذي لا يحرف الحدود ولا السدود. وإذا كنا قد لاحظنا بعض المؤاخذات على المؤلف ، فمن المسلم به أن كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك، إلا المعصوم صلوات الله عليه ومن وثق الله هداه وعصمته .

بقى أن نقول إن الكتاب يختم بتعليقات ضافية على أحاديث نبوية صحيحة معظمها في الصحيحين أو فى مسند أحمد رضوان الله عليه، وكأن المؤلف بعد أن طاف بالقارىء في كل مكان وزمان وبعد أن عرض عليه ما جاء به خير البشر ، أراد أن يطيل القارىء عشرته ومعايشته ومشاركته في الهداية النبوية ، وقد أتبع ذلك بتخصيص وضع لأربعين حديثا نبويا

انتقاها واختارها تأسيا بجمهرة من العلماء السابقين الذين فعلوا هذا الصنيع تبركا والتزاما ووفاء بما ورد من أحاديث بهذا الصدد .

واذا كان هناك فيما عرضه ابن العماد ما هو معروف مشهور ، فإن فيه أيضا ما هو طريف جديد ، أو على الأقل غير معروف للجمهور العريض من المسلمين ، ولا يمكن أن يغفل الدارس لهذا الكتاب الجانب الأدبي والأشعار والحكم التى تأتى في موضعها اللائق من الاستشهاد ، وإذا كان الناسخ جميل الخط حقا ، فإنه كان كثير الخطأ، وقد ثبتت تصحيحات كثيرة يبدو أنها نقلت من نسخة أخرى .

إن جزءا لا بأس به من الكتاب يعالج الفتن بين المسلمين وطريق علاجها وما ورد فيها من أحاديث ، فحبذا لو سلطت الأضواء على ذلك حتى يستعيد المسلمون رشدهم فيدخروا طاقاتهم ودماءهم وأموالهم ليوم نصر كبير يفرح به المؤمنون ؟

روى عبد الله بن وهب عن سفيان ، أن الخضر على نبينا وعليه السلام ، قال لموسى عليه السلام : يابن عمران ، تعلم العلم لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بوره ، ولغيرك نوره ، وقال علي بن أبي طالب : إنما زهد الناس في طلب العلم ، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم ، وقال أبو الدرداء : أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله ، أن يقول : قد علمت فماذا عملت ؟